

« ملك النار الجزء 4 »

وزى عوض



هذه السلسلة

عندما تتحول حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء .

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة .

يتوق قلب كل منا إلى الحب .. الحب الذى يروى هذه المشاعر .

فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فيشع عبيرها الفواح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبة والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا .

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

اعتذار

القراء الأعزاء ..

صدر الجزء السابق بعنوان « طائر الجنون » فى حجم صغير جدًّا ، وبشكل غير مألوف لحضراتكم ، ولم يكن ذلك إلاَّ لتعرضى لحادث سيارة ، ترتب عليه إجراء عملية جراحية صعبة قبل أن أكمل ذلك الجزء مباشرة ، فأرجو من حضراتكم قبول اعتذارى ، ولكم جميعًا خالص شكرى وتقديرى ..

فوزى ..

أغلى إهـــداء

إلى أغلى شباب الأرض ..
شـباب مصـر .. إلى أعظم
شــعوب الأرض .. شـعب
مصر .. إلى أنبـل جيوش
الأرض .. جيش مصـر ..
إليـكم جميعًا يا مـن أبهـرتم
العـالم أجمع بأروع ثورة فى
التـاريخ البشرى .. ثـورة 30
يونيـو أهديكم روايتى ..

فـــوزى

الفصل الأول

مع أول دفعة أعيرة نارية كان المعلم (شحات) يدفع بـ (علاء) إلى داخل السيارة الجيب ، ويقفز هو أمام الدريكسيون ، منطلقًا بالسيارة كالسهم المارق ، تاركًا خلفه جهنم وقودها أكثر من مائة وخمسين ألف لتر من البنزين ، وانفجارات عشر شاحنات راحت تدوى فى الفضاء ، وتهز الصحراء هزًا .. مضى ينطلق بالسيارة دون أن ينظر خلفه ، ولا حتى عبر المرآة الأمامية الكبيرة العالقة أمامه ، بينما (علاء) إلى جواره يكاد صدره ينفجر من شدة صعوده وهبوطه ، وتكاد عيناه تخرجان من محجريهما من شدة جحوظهما ، وهو يبعثر نظراته الذاهلة المرتاعة بين المعلم والمشهد الجهنمى الذى يخلّفانه وراءهما ، حتى صارا قاب قوسين أو أدنى من طريق (القاهرة / السويس) ، فإذا بالمعلم يترنّح وهو ينادى فى خفوت المحتضر :

ـ (علاء) ... (علاء) .

قالها وسقط رأسه فوق الدريكسيون ، فما كان من (علاء) إلا أنه أسرع يضغط دواسة الفرامل بقدمه وهو ينادى بفزعه الذى يكاد يوقف قلبه ..

ــ معلم (شحات) .. معلم .

ولكن المعلم كان قد راح فى غيبوبته ، فأسرع الفتى يقفز من السيارة ، ويجرى إليــه من الباب الآخر ؛ ليرى ما به ، فإذا بجلبابه مخضب بالدماء .. انطلقت صرخته المرتاعة من قلبه .

ــ معلم (شحاااااات) .

وأسرع يسحبه خارج السيارة ، ويحمله إلى الكنبة الخلفية .. أرقده ، وراح ينزع عنه ثيابه ليرى ما به ، فإذا بالدماء تتدفق ساخنة من أنحـــاء جسده ، أسرع يطلب (أميرة) فى الموبايل ، وكان رده على حديثها وهو يصرخ فيها بفزعه :

ــ أنا أُجيـــد القيادة .. فقـــط أخبرينى ماذا أفعـــل .. أمرك .. أمـــرك .

وأسرع يقفـــز أمام الدريكسيون ، وينطلق بالسيارة بسرعة جنونية صوب القاهرة ، حتى إذا ما بلغ طريق « جسر السويس » سمع أصوات (أميرة) والكثير من الرجال يتصايحون عليه من الاتجاه المعاكس ، التفت فإذا بـــ (أميرة) تصرخ عليه :

ــ قف مكانك ، سنأتيك من الفتحة القادمة ..

وفى لحظـــات كانت (أميـــرة) تأتيـــه بسيارتها على رأس سرب يزيد على العشرين ســـيارة جيب وصالون وميكروباص محملة جميعها بالرجـــال الذين سارعوا بالقفـــز من السيارات محيطين بسيارة المعلم (شحات) ، بينما سارعت (أميـــرة) مع المعلم (توبة) بالقفز على أبيها داخـــل سيارته ، وانطلقت تفتش فى جســـده وتناديه بفـــزع وارتيـــاع وقلبها يكاد ينخلع من مكانه :

ــ بابا .. بابا .. رد علىّ يا بابا .

وفوجئت بدمائه تغمُر يديها ، فدوت صرختها وهى تحتضنه :

ـ بااااااااابا .

وكاد عقل المعلم (توبة) يطير وهو أيضًا يُفاجأ بدمائه تغمر جســده وثيــابه ، وأسرع يناديه بفزع وارتياع وهو يحتضن رأسه بكفيه :

ـ شحات .. شحات .. رد علىَّ يا شحات ..

ولم يتلق الاثنــان من المعلم (شحات) أية إشارة تدل على أنه ما زال من الأحيــاء ، فأسرع المعلم (توبة) يضع أذنه على صدره مصغيًا إلى نبض قلبــه ، بينما أسرعت (أميرة) تمسك بمعصمه أيضًا لاستكشاف نبضــه ، فإذا به يكاد يكون معدومًا ، فى حين راح (علاء) يناديه وقد حشر نفسه بين الاثنين متقرفصًا فوق أرضية السيارة ، وممسكًا بذراع المعلم (شحات) .

ـ معلم (شحات) .. معلم .

وانتبهت (أميرة) إلى (علاء) ، وهمّت بأن تصرخ فيه بأمرٍ ما ، ولكنها أسرعت توجه صرختها إلى أحد الرجال المحيطين بالسيارة :

ـ انطلق بنا يا (عبدون) !

وجاءها سؤال (عبدون) السائق الخمسينى العمر وهو يقفز أمام الدريكسيون :

ـ إلى أين يا ست هانم ؟

ـ إلى مستشفى الدكتور (شاكر) .. بسرعة .. بسرعة يا (عبدون) .. بسرعة .

ـ أمرك يا أفندم .. أمرك .

وانطلق (عبدون) بأقصى استطاعته ، وانطلقت خلفــه بقية السيارات بحمولاتها من الرجال ، وفى أقــل من نصف الساعة كان المعلم (شحات) يُسجى فى غرفة العمليات بين أيدى فريق من كبار الأطباء الذين انطلقوا يسابقون الزمن لإنقاذ الرجل من قبضة الموت ، بينما خارج الغرفة ، وحتى الشارع أمام المستشفى تحوّل المكان إلى محشر للبشر ممن جاءوا بالرجل تتقدمهم (أميرة) و(علاء) والمعلم (توبة) ، وممن راحوا يتوافدون

على المستشفى من الأهل والأقارب تتقدمهم (رقيَّة) زوجة الرجل وشقيقته (عزيزة) وابنه المقدم (عصام الشحات) بحشد من زملائه الضــباط ، ومن أصدقاء الرجـل وجيـرانه ومن كبار المسئولين ، ومن كل من وصله خبر بالفجيعة ..

وفى إحساس الجميع أصيب الزمن بالكساح فراحت الثوانى والدقائق تزحف فوق القلوب زحف الحيات الكسيحات ، ومن تحتها انشطرت القلوب بين قلق يفترسها بوحشية دامية ، وابتهال دامع إلى الله بأن يدرك الرجل بلطفه .. سبع ساعات والعيون والقلوب عالقة بباب غرفة العمليات تارة وبالسماء تارة أخرى ، حتى فُتح باب غرفة العمليــات ، وخرج الأطبــاء بوجوههم المجهدة ، لتنهال على كبيرهم التساؤلات المتلهفة ، وكان جواب الطبيب بصوت مُمزق بين القلق والأمل :

ـ سبع عشرة رصاصة اخترقت جسده ، ولكن من لُطف الله أنه لا شىء منها أصاب الرأس أو القلب .

ـ إذن فقد نجا يا دكتور .

هكذا جاءته هتِفة محاصريه فى نفس واحد وبلهفة هيستيرية ، فكان جوابه :

ـ نحتاج إلى اثنتى عشرة ساعة على الأقل لنتأكد من ذلك ، وسيتم وضعه خلالها تحت الملاحظة .

وجاءه سؤال (أميرة) بالدموع :

ـ هل يمكننا رؤيته يا دكتور ؟

وكان رد الطبيب فى حسم :

ـ لا .. ليس قبل الاثنتى عشرة ساعة .

وألقى الطبيب بنظرة دهشة على الحشود الممتدة أمامه حتى نهاية الكوريدور ، ثم عاد بعينيه إلى (أميرة) والمقدم (عصام الشحات) ، قائلاً لهما :

ـ (عصام) باشا .. أريد سيادتك فى المكتب أنت والآنسة (أميرة) .



ومضى بهما إلى مكتبه ، وهناك وقف الطبيب الستينى العمر يتطلع إليهما فى حيرة لوهلة ، وجد نفسه بعدها يقول لهما فى حرج :

ـ (عصـــام) باشـــا .. آنســـة (أميرة) .. ماذا سنقول للبوليس ؟

وفوجئ الشقيقان ، وأسرعا يتبادلان نظرة دهشة ، التفتت بعدها (أميرة) إلى الطبيب مرددة بدهشتها :

ـ البوليس ؟!

ـ نعم يا آنسة (أميرة) .. هذه حالة تستدعى إبلاغ البوليس .

ازدادت دهشة الفتاة ، وتحرك غضبها وهى تسأله :

ـ وهل المعلم (شحات) حالة يا دكتور (شاكر) ؟!

ارتبك الطبيب ، وانكسرت عيناه وهو يجيبها :

ـ يا آنسة (أميرة) .. صحيح المعلم خيره علىّ وعلى المستشفى ، والمستشفى يكاد يكون ملكه ، ولكن ......

أسرعت (أميرة) تقاطعه بدهشتها :

ـ ولكن ماذا يا دكتور ؟!

ثم إذا بدهشتها تنقلب جبروتًا مدهشًا ، وتردف قائلة له ، وهى تكاد تضرب أصبعها فى عينه :

ـ اسمع يا دكتور يا محتـــرم .. اسمعنى جيـــدًا .. حذارِ .. حذارِ من تسرب كلمة واحدة عما حدث من باب هذا المستشفى ، ســـواء للبوليس أو للصـــحافة أو لغيرهما .. حـــذارِ يا دكتور حذارِ .

وبُهت الطبيب ، وتسمّرت عيناه على وجه الفتاة بذهول من سقط على رأسه الطير ، ولم يدرِ كيف خرج سؤاله الممزق من فمه :

ـ ولكن كيـــف يا آنســـة (أميـــرة) ؟! كيـــف يمكن تكتم خبر مثل هذا مع وجود كل هذه الحشود والأطباء وموظفى المستشفى ؟!

وكان جواب الفتاة بنفس جبروتها :

ـ لا أحد من هذه الحشود سيفتح فمه ، أما الأطباء وموظفى المستشفى فسيادتك المسئول عنهم .

ـ وموقع الحادث ؟!

ـ لن يوجد به أثر لبشر ، أحياء أو أموات ، وأما السيارات فلن يبقى منها سوى قطع صاج محترقة بلا أية معالم ..

ولم يجد الطبيب ما يقوله ، ولكن تردده ظل عالقًا بنظراته ، وإذا بالمقدم (عصام الشحات) يتدخَّل فى الحوار لأول مرة بسؤاله للطبيب فى هدوء مخضب بصرامة العسكريين :

ـ دكتور (شاكر) .. أين ابنك (أحمد) باشا سيادة وكيل النيابة ؟

فوجئ الطبيب ، وكان جوابه فى دهشة :

ـ إما فى مكتبه أو فى منزله ..

ارتسمت على شفتى الضابط ابتسامة تهكُّم وهو يلقى عليه بسؤاله التالى :

ـ وهل مكانه الطبيعى الآن فى مكتبه أو منزله يا دكتور ؟

لم يفهم الطبيب ، ووجد نفسه يتطلع إلى الضابط بنظرة تساؤل ، فإذا بالأخير يردف قائلاً بهدوئه الصارم :

ـ ماذا يا دكتور ؟ ألا تعلم أن الباشا وكيل النيابة مكانه الطبيعى فى السجن الحربى بشهادة تأدية الخدمة العسكرية المضروبة ؟ ماذا يا دكتور ؟ معقول نسيت ؟ كيف وأنت الذى اشتريتها له بنفسك ؟

وكأن حجرًا من جهنم ، حجرًا من سجِّيل .. سقط فوق رأس الطبيب العجوز ، فشطر عقله نصفين ، وقلبه أيضًا .. علقت عيناه بعينى الضابط بفزع يكاد يفوق فزع الموت ، وراح يحاول النطق :



ــ أنا .. أنا ...

ــ مات الكلام يا .... دكتور .

قالها الضابط الشـــاب بهدوئه المريع وهو يفترس الطبيب العجوز بنظرة متوحشة ، استدار بعدها مغادرًا المكتب بشقيقته .

★★★

الفصل الثانى

بمعجزة إلهية نجا المعلم (شحات) من الموت المحقق ، ولكن بجسد مُمزق ، لملمته أيادى الجراحين بما يزيد على المائتى غرزة فى لحمه والعشرين مسمارًا وشريحة معدنية فى عظامه ، وبنظرة واحدة أدرك كل من شاهده من خلال الحاجز الزجاجى لغرفة العناية المركزة أن المعلم (شحات) الرجل القوى الداهية قد انتهى ، ولم يعد باقيًا منه ســوى هــذا الجسد المهترئ الذى تتنازعه شبكة من الخراطيم والأسلاك الموصولة بالعديد من الأجهزة الطبية والمحاليل فى محاولة مستميتة من الأطباء لحفظ ما به من بقايا حياة .. مشهد فاجع غمر قلب كل من شاهده بالغم .. إلاَّ اثنين .. (أميرة) و(علاء) .. داهمهما شعور مغاير تمامًا .. شعور بذهول أسود مُطبق غشى عقليهما .. شعور بأن هذا الذى حدث ما هو إلا كابوس .. كابوس يمران به فى منام ، وسوف يستيقظان منه ليجدا كل شىء كما هو ، ليجدا المعلم (شحات) بكامل قوته وعنفوانه وجسارته ودهائه ، وسحر شخصيته الذى يمنحه هالة ما حظى بها رجلٌ سواه ،

وليجدا نفسيهما فى حضنه ، شبلين مدللين فى حضن أسد هصور، وليجــدا دنياهما الوردية كمــا هى بكامل مفرداتها ، وحينذاك سيتأكد لهما أن هذا الذى حدث ما هو إلا كابوس ، ولكن ها هى الثوانى والدقائق والســاعات تمــر ، بل والصباح تلو الصباح ، فلا الكابوس انتهى ، ولا هما استيقظا منه ، وكل ما حدث هو أن ذهولهما الأســود راح يفك قبضته عن وعيهما ، لتتجلى لهما واقعية ما هما فيه .. ليجدا نفسيهما أمام الحقيقة ، وهى أن المعلم (شحات) قد سقط .. سقط شبه أشلاء ، وها هو أمامهما شــبه ميت .. المعلم (شحات) الأب القــوى الجســور الحنون الذى ليس لهما سواه ، الذى يمنحهما الحماية والأمان ، ويضىء لهما كل الدروب ، الــذى يغمرهما حبًّا وحنانًا وإحساسًا رائعًا بالحياة ، الذى هو أكثر كثيرًا مــن أب ، ها هو أمامهما لا يزيد عن قطعة لحم ممزقة ململمة بالخيوط الجراحية ، وها هما أمامه يحدقون فيه بكامل وعيهما ، وحينئــذ كان انهيارهما .. انفجرا باكيين بانهيار مميت كاد يصرعهما ، لولا سؤال انفجر فى وجه (أميرة) كقذيفة حارقة .. سؤال جاءها من أمها بغلٍّ لا يحتمله قلب بشر :

ـــ من فعل هذا بأبيك يا (أميرة) ؟ من فعل هذا بأبيك ؟

وإذا بالفتاة المنهارة تنقلب وحشًا مــن نار سوداء .. وحشًا مفزعًا .. رهيبًا .. مريعًا .. وحشًا من سخط خالص وغل خالص وحقد خالص .. وحشًا بدا بمقدوره إحراق الأرض بمن فيها ومن عليها من هول غله وسخطه وحقده وغضبه .. وحشًا انقلبت عيناه جمرتى نــار وهــو يجيب السؤال بثلاث كلمات مغمورة بسواد قلبه :

ـــ رفعت .. العم (رفعت) .

والتفتت بعينيها المتقدتين بغل يفوق طاقة قلوب البشر إلى (علاء) الذى كان يقف إلى جوارها مع أمها وشقيقها المقدم (عصام) وجمع من الأهــل والأصدقاء وقــد تسمرت عيونهم جميعًا على المعلم (شحات) فى بهوت وصمت مطبق لم تقطعه سوى غمغمة (ناصر) بذهول دامغ :

ـــ مستحيل !! خالى (رفعت) يفعل هذا ؟! لماذا ؟! هل جُنَّ ؟!

* * *



وبالفعل لم تكن هيئة (رفعت) فى هــذه اللحظة ببعيدة عن هيئة المجانين وهو يجلس فى شرفة شقته المطلة على شاطئ (العجمى) ، والتى لا يعرف طريقها أحد من العائلة أو الأصدقاء ، فعلى وجهه الجهم بطبيعته انتشرت شعيرات لحيته حتى غطت صدغيه ، وعلى جسده المفتول لم يرتدِ سوى جلباب صعيدى قاتم مهدل كشفت فتحته الطويلة عن صدره المشعر رغم صقيع ديسمبر القارص ، وفى عينيه المطفأتين احتشد سخط الدنيا كله وذهولها وهو يحدّق فى البحر المعتم الهادر الذى اندفعت أمواجه تطارد بعضها البعض حتى يصل رذاذها إليه فى الشرفة ، وكأنها تحاول لفت انتباهه إليهــا دون جـدوى .. كان من الواضح أنه مفصول تمامًا بجملة حواســه عما حوله ، حتى إنه لم يشعر بــ (شوشو) وهى تجلس أمامه تتأمله باستياء لما يقارب ربع الساعة .. إنهــا زوجتــه السرية ، فهى أيضًا كالشقة لا يعلم بأمرها أحــد من عائلته أو أصدقائه ، والمبرر معلوم ، فهى من صنف مناقض تمامًا لبيئته الصعيدية .. إنها فاتنة مبهرجة ، طاحنة الروشنة ، تقف على عتبة الثلاثين من عمرها بتحرر جامح فى مظهرها وسلوكها ، ومع ذلك هى أبعد ما يكون عن الوقوع فى

الخطأ أو الخطيئة وهو ما جعلها تكسب ثقة (رفعت) المطلقة رغم بيئته المتصلبة وشخصيته الصعبة المراس ، ولكن ها هى تفتقد هذه الشخصية القوية الشرسة منذ ما يزيد على العشرين يومًا ، فهذا الذى يجلس أمامها ليس (رفعت) زوجها حبيبها الذى فتنها وأختطف قلبها بشخصيته القوية المتوهجة بالحيوية منذ ما يزيد على ثلاث ســنوات .. أين ذهــب (رفعت) الذى أحبتــه وتزوجته ؟! أين ذهــب ؟! وماذا جـرى له ؟! ماذا ؟! طفحت حيرتها واختناقها على وجهها وفى عينيها وهى تتأمله وهو ذاهل عنها حتى وجدت نفسها تسأله باختناقها :

ــ وماذا بعد يا (رفعت) ؟

وذهب سؤالها أدراج الرياح ، فأردفت وهى تتمالك نفسها بصعوبة :

ــ يا (رفعت) .. يا (رفعت) أنا أكلمك .

وانتبهت إلى سيجارته وهى تكاد تحرق إصبعيه ، فأسرعت تسحبها منه ، وتطفئها فى المطفأة الممتلئة ببقايا السجائر أمامه ، فما كان منه إلا أنه أشعل سيجارة أخرى ، وأخذ منها نفسًا

طويلاً ، عــاد بعــده إلى التحديق فى البحر وكأنها ليست أمامه بالمرة ، فكان انفجارها فى وجهه :

ـ لا .. هــذا كثيــر .. كثير جـدًا يا (رفعــت) .. ماذا بك يا رجل ؟! ماذا بــك ؟! مــاذا تخفى عنى ؟ ماذا يا (رفعت) ؟ أكثر من عشرين يومًا وأنت بهــذا الحـــال .. من الفراش إلى الحمام إلى البلكون !! وبالكاد تقتات لقيمات لا تسمن ولا تغنى من جوع !! وتحرق ما يزيد على المائة سيجارة فى اليوم !! وكلما سألتك عــن السبب فى كل هــذا تجاهلتنى !! فلم كل هذا يا (رفعت) ؟! لِمَ ؟! تكلم يا (رفعــت) .. تكلم .. صارحنى .. أنا زوجتك ومن حقى أن أعلم ما بك كى أقف إلى جوارك .. لقد أرسلت (مدحت) ابن أختى إلى (مصر) فى نفس اليوم الذى جئتنى فيه بحالتك هذه ، ليسأل عندك فى محطة البنزين عما حدث معك ، فعاد ليؤكد لى أنه لم يحدث شىء سوى هجومك على (شـــحات) فى مخــزن (الخصوص) برجالك ، وأن الحكومة تدخلت و ....

ولم تكملها .. فقد فوجئت بــ (رفعت) يدير وجهه نحوها بنظرة تتفجر غلاً وسخطًا رهيبين ، جعلاها تتساءل فى دهشة :

ـ ماذا ؟! ماذا يا (رفعت) ؟! هــل يمكن أن يكــون هذا هو السبب ؟! معقول ؟! خلاف !! مجرد خلاف أو شجار مع شقيقك يفعل بك هذا ؟! كيف ؟! كيف وأنا منــذ عرفتك وأنت فى خلاف وشجــار معــه ؟! ما الجــديد هــذه المــرة ؟! ما الجديد الذى فعل بك هذا ؟! تكلم يا (رفعت) ! انطق !

وراحت تحدق فيه بدهشتها ، فإذا به يشيح عنها بوجهه مرة أخرى ، فلم تدر بنفسها إلا وهى تصرخ فيه بمنتهى الغيظ :

ـ فى ستين داهية أنــت وهو .. لماذا أتعب نفسى ؟ يا رب تحرقا بعضكما ببنزين وسخ .

وانتفضت واقفة للانصراف مــن أمامه ، فــإذا به هو أيضًا ينتفض واقفًا قابضًا بيسراه على شعرها مــن الخلف بمنتهى القسوة ، بينما هوت يمناه على صدغها بصفعة دامية كادت تسقطها أرضًا فاقدة الوعى .. ترقرقت الدموع فى عينيها وهى تتطلع إليه فى ألم وعتاب ، وانسابت كلماتها من قلبها غارقة فى المرارة :

ـ اضربنى .. اضربنى يا (رفعت) .. اضربنى كمـا تشاء لو أن هذا يريحك ويخرجك من هذا الذى أنت فيه .. اضربنى .. اذبحنى .. افعل بى ما تشاء ، ولكن لا تترك نفسك لهذا الانهيار الذى لا أعرف له سببًا .. لا تحطم نفسك هكذا ..

واندفعت الدموع من عينيها حتى غزت شفتيها ، بينما تعلقت عيناها بعينيه فى رجاء يمزق القلب .. اهتز قلبه .. فتراخت يده تاركة شعرها ، وتهاوى بمقعده مرة أخرى ، ووجد نفسه يقول لها وهو يطرق بنظراته إلى الأرض بانكسار :

ـ ومن أخبرك بأننى لم أتحطم ؟ بل تحطمت وانكسرت ، ولم تعد لدى ذرة كرامة .

ـ يا ساتر .

قالتها وهى تعاود الجلوس أمامه ، رافعة وجهه بين راحتيها بحنان غامر ، وأردفت قائلة وهى تحلق بنظراتها الحنون على وجهه :

ـ ما عاش ولا كان مـن يستطيع أن يفعل بك هـذا .. أنت (رفعت) .. (رفعت الصعيدى) الذى تهتز الأرض تحت قدميه ،

وتعمل له كل البشرية التى تعرفه ألف حساب ، ولم تلده أمه بعد من يستطيع أن يمس كرامته .

ـ بل وُلد يا (شوشو) .. وُلد وفعلها ، ولم يمس كرامتى فحسب ، بل سحقها ، ولم يُبق منها شيئًا .

ـ من يكون هذا ؟!

ـ (شحات) !!

ـ (شحات) شقيقك ؟!

ـ نعم .. (شحات) شقيقى .

تنفست الصعداء :

ـ يا (رفعت) .. يا (رفعت) يا حبيبى .. (شحات) شقيقك الأكبر ، ولا شىء منه يعيبك مهما فعل بك .

ـ تقولين ذلك لأنك لا تعلمين ما فعله ..

وراح يشعل لنفســه سيجارة بيـد مرتعشة من فرط عصبيته وانفعاله ، ثم مضى يقول وهو يوشك أن ينفجر كمدًا :

ــ (شحات) .. (شحات) شقيقى .. ابن أمى وأبى .. كسر نفسى .. غرس دماغى فى الطين .. أوقفنى كالكلب الذليل أمام صبى من صبيانه ، وأجبرنى على الاعتذار له .. أوقفنى أنا وأجلس الصبى ، وأمرنى بالاعتذار له .. لصبى علقته يومًا ما من قدميه فى السقف .. وبعدما اعتذرت له واسترضيته وأنا أقف أمامه كالكلب الذليل تم طردى من المكان وبقى هو جالسًا معززًا مكرمًا ، فهل سبق لك أن سمعتى بكسرة نفس أكثر من هذه ، ولمن ؟! لــ (رفعت الصعيدى) !! (رفعت) !! (رفعت) !!

وألقى برأسه بين كفيه ، وراح يفركها بكمد جنونى ، وبدا من احتقان وجهه وكأن الدماء تغلى فى رأسه ، فأسرعت (شوشو) تأخذ رأسه فى حضنها ، وهى تهتف به فى هلع :

ــ كفى .. كفى يا (رفعت) .. ارحم نفسك .. ستقتل نفسك بهذه الطريقة .

وكان رد (رفعت) وهو منهار فى حضنها :

ــ ليتنى أقتل نفسى .. ليتنى أفعلها .. ليتنى أمــوت .. ليتنى مت قبل أن يفعــل بى (شحات) هــذا .. ليتنى مت أو قتلت (شحات) قبل أن يُلبسنى طرحة مثل النسوان .. ليتنى قتلته .. ليتنى قتلته .

وانفجر باكيًا ، فلم تملك (شوشو) إلا أن تضمه أكثر فى حضنها ، وتربت عليه مرددة بحنو :

ــ اهدأ يا (رفعت) .. اهدأ يا حبيبى .. اهدأ لأجل .....

ولم تتمها ... قاطعها رنين جــرس الشــقة وطرقات عنيفة متلاحقة على الباب ، جعلتها تتساءل بعصبية ودهشة :

ــ ما هذا ؟! من هذا المجنون الذى يكاد يحطم الباب هكذا ؟!

وأسرعت تضبط (رفعت) فى مقعده ، مردفة بدهشتها :

ــ لحظة يا حبيبى ؛ لأرى من يكون هذا المجنون .

وانطلقت تفتح باب الشقة ، فإذا بشقيقها (منصور) العامل بمحطة بنزين (رفعت) بالقاهرة يهتف بها بانزعاج عاصف وهو يندفع إلى داخل الشقة :

ــ أين المعلم (رفعت) يا (شوشو) ؟! أين هو ؟!

ولمحــه فى مقعده فى البلكــون ، فاندفع نحوه صائحًا فيه بانزعاجه :

ــ أعلمت بما حدث لشقيقك (شحات) يا معلم ؟!



وأسرعت (شوشو) تسأله فى فزع :

ـ ماذا حدث له ؟!

ـ مزقوه بالرصاص .

ـ ماذا ؟!

انطلقت مدوية من (رفعت) وهو ينتفض واقفًا مصعوقًا !!

★ ★ ★

الفصل الثالث

كالمجنون انطلق (رفعت) بسيارته قاصدًا (القاهرة) ، وفى أقــل من ساعتين كـــان يقتحم غرفة المعلم (شحات) فى المستشفى ، يسبقه صياحه الذاهل :

ـ (شحات) .. أخى .. أخى (شحات) .

وجاءه الرد الذى جمده فى مكانه .. فوهات نحو عشر طبنجات ضُغطت فى مؤخرة رأسه .. استدار بصعوبة ، فإذا هى طبنجات المقدم (عصام) ، والمعلم (توبة) ، وعدد من كبار رجال العائلة ، وقد طفحت عيونهم وسحناتهم جميعًا بغل رهيب ، وإذا بـــ (أميرة) تنقض عليه ، مطبقة على عنقه ، يسبقها صراخها الهيستيرى :

ـ لماذا ؟! لماذا ؟!

وأسرعت أمها و(ناصر) ، وبقية المتواجدين فى الغرفة ، يأخذونها فى أحضانهم ، ويحاولون تهدئتها ، أما (علاء) فقد راح

يحدق فيه بعينين جاحظتين مخيفتين ، وهو يجاهد كمده الرهيب الذى يكاد يدفعه إلى اختطاف إحدى الطبنجات الشاهرة فى أيدى الرجال ، وتفريغها فى قلبه ورأسه ، وبالفعل همَّ بأن يفعلها ، فإذا بالرجال يشدون أجـزاء الطبنجات لفعلها ، وإذا بهـم يفاجئون بالمعلم (شحات) يرفع يده بصعوبة ، مشيرًا لهم بألا يفعلوا .. تسمروا فى أماكنهم ، يشويهم كمدهم وسخطهم ، بينما أسرع (رفعت) يميل على شقيقه قائلاً بانهيار وذهول دامغ يكاد يذهب بعقله :

ـ (شحات) .. أخى (شحات) .. كيف حدث هذا ؟! كيف ؟! وهل خطر ببالك أو ببال هؤلاء الناس أن أفعل بك هذا ؟! كيف ؟! كيـف يا (شـحات) ؟! هـل جننتـم ؟! هل ذهبت عقولكم ؟! نعم يا (شحات) .. مـن يخطـر ببالـه أن أفعـل بك هـذا يكون مجنونًا ، نعم .. لا يمكن أن يكـون سـوى مجنـون .. أنـا ؟!.. أنا يا (شـحات) ؟!.. أنـا أفعـل بك هـذا ؟! أفعله بـ (شحات) ؟! (شـحات) ؟! (شـحات) أخى ابـن أمى وأبى ؟! (شـحات) الـذى ربـانى بعـد وفـاة والدينـا ؟! (شـحات) أخـى وأبـى وعـزوتى وكـل مـالى فى

الدنيـا ؟! (شحات) الأغلى عندى من نفسى ؟! أفعل به هذا ؟! كيف ؟ كيف يا (شـحات) ؟! يا (شحات) أنا أختلف معك .. أتشـاجر معـك .. أغضـب منـك .. أتهـور فى حديثى معك .. أتـكلم معـك بغشـم .. أى أن آخـرى معـك هـو الكـلام .. أما أن أفكر فى إيذائك فهذا هو المستحيل .. المستحيل بعينه يا (شـحات) .. نعـم يا (شـحات) .. قولوا علىّ غشيمًا .. قولوا مجنونًا .. قولوا ما تقولون .. ولكننى أبدًا لست ابن حرام .. لست ابن حرام .

وأنكفأ برأسه على حافة الفراش منخرطًا فى البكاء وهو يردد قسمه :

ـ ووالله العظيم .. والله العظيم أنـا لم أعلم بهـذه المصيبة إلا اليوم ، ومن ساعات فقط .

وارتفع صوت نحيبه ، ولكن أحدًا من الواقفين لم يرق قلبه له ، وأسرع المعلم (توبة) يجذبه بعنف من جلبابه ؛ ليوقفه ، ويسأله بجم غضبه :

ـ إذن فلماذا اختفيت من يومها حتى الآن ؟

وبدموعه كان جواب (رفعت) :

ــ أنا لم أختف من يومها يا معلم (توبة) .. أنا اختفيت من يوم إهانة (شـحات) لى فى مكتـب وزير الداخلية .. يومها خرجت من مكتب الوزير إلى بيتى ، ولم أر الشارع إلا اليوم .

وفوجئت (سجيمة) زوجة (رفعت) الصعيدية ، والواقفة بين النساء فى الغرفة ، والتفت إليها المعلم (توبة) ؛ ليسألها فيما يقوله زوجها ، فإذا بدهشة النفى مرسومة على وجهها .. عاد بعينيه إلى (رفعت) وقد ازداد غضبًا ، فأسرع (رفعت) يدركه قائلاً :

ــ أنا لم أكن عند (سجيمة) .

فوجئت (سجيمة) ، وانفلت سؤالها وهى تتقدم منه بذهول يكاد يعصف بعقلها :

ــ عند من كنت إذن يا (رفعت) ؟!

لم يبال بها (رفعت) ، ووجّه جوابه للمعلم (توبة) :

ــ كنت عند زوجتى الثانية فى (الإسكندرية) ، فأنا متزوج ولى بيتٌ هناك ، وهذه هى قسيمة زواجى ، وزوجتى وشقيقها خارج الغرفة ، ويشهدون بذلك .

ومد يده بقسيمة الزواج للمعلم (توبة) ، وسقط الطير على رءوس الجميع .

★ ★ ★

وجاء أحد أطباء المستشفى الاستشاريين ، ليلقى نظرة على المعلم (شحات) ، فإذا به يُفاجأ بهذه الجلبة من حوله ، وإذا بعينيه تسقطان على الطبنجات فى أيدى الرجال ، لتنفلت منه هتفته فى فزع :

ــ ما هذا ؟!

وأسرع يسأل الممرضة المرافقة له بفزعه :

ــ ما هذا يا (بسمة) ؟!

وضرب الارتباك الممرضة ، فى حين اختفت الطبنجات جميعًا داخـل ثياب الرجال فى لمح البصر ، وأسرع المعلم (توبة) يهدئ من روع الطبيب بلهجة حكيمة :

ــ لا مؤاخذة يا دكتور .. كـان هناك خـلاف بسيط ، وفضناه بسلام والحمد لله .

وازداد الطبيب ذهولاً :

ــ خلاف بسيط بالسلاح ؟! وهنا مع مريض بهذه الحال .

ــ سامحنا يا دكتور .. سامحنا .

ـ أسامحــكم ؟! أنــا أسامحكم ؟! وماذا عــن المــريض ؟! ألا يعنيكم أمره ؟! هــل تريدون القضــاء عليــه ؟! أقسم بالله لولا قرابتكم للدكتور (شاكر) لأبلغت البوليس عنكم فورًا .

ونظر بعتاب إلى المقدم (عصام) ، فلم يملك الأخير إلا أن يقول له فى خجل :

ـ نكرر اعتذارنا يا دكتور .

ـ إذن خذهم يا باشا ، وغادروا الغرفة من فضلكم .

ـ أمرك يا دكتور .

وراحوا جميعًا يغادرون الغرفة ، فإذا بالمعلم (شحات) يشير للمقدم (عصام) بالانتظار ، وانتظر حتى إذا ما خرج الجميع عاد يشير لابنه بأن يميل عليه بأذنه ، وراح يجاهد فى الهمس له ببضع كلمات ، ما أن سمعها الابن حتى طفح الذهول على وجهه ، ولم يدر ماذا يفعل ، فما كان من المعلم (شحات) إلاَّ أن همس له ببضع كلمات أخــرى جعلت الابن يومئ له بالطاعة ، ولكنه

ما أن أعتدل فى وقفته ، وأعطى أباه ظهره حتى كان الذهول والحيرة يوشكان أن يشطرا عقله نصفين ، ومضى مغادرًا الغرفة وهو لا يكاد يقــوى على جــر قدميه ، حتى إذا ما خرج إلى الجمع المنتظر بالخارج ، ووقعت عيونهم عليه وهو بهذه الحال ـ هوت قلوبهم فى أقدامهم فزعًا على المعلم (شحات) ، ووجدت (أميرة) نفسها تندفع نحوه يسبقها سؤالها فى ارتياع :

ـ عصام .. ماذا حدث ؟!

فما كان من (عصام) إلاَّ أنه راح يحدّق فيها بذهوله وحيرته ، ثم التفت باحثًا بعينيه الذاهلتين عن (علاء) ، حتى إذا ما لمحه راح يحدق فيه هو أيضًا بنفس ذهوله وحيرته ، حتى انتبه إلى صوت أمه وهى تمسك به وتسأله بفزع :

ـ عصام .. ماذا حدث يا بنى ؟

ووجد (عصام) نفســـه يحدّق فيها هى أيضًا بنفس نظرته الذاهلة الحائرة ، ثم كان جوابه للجميع بصوت ذاهل ، وكأنه يتحدث من العالم الآخر :

ـ سأذهب لأقضى طلبًا للمعلم .. انتظرونى جميعًا حتى أعود .

ومضى فى طريقه وهــو لا يكاد يرى أمامه ، ليغيب عنهم ساعة بالضبط ، عاد بعدها بمفاجأة كادت تعصف بعقولهم جميعًا .. مأذون شرعى .. مضى به (عصام) إلى أبيــه فى غرفته ، ليخرج إليهم بعد لحظات مستدعيًا (أميرة) و(علاء) والمعلم (توبة) و(رقيــة) ، ليبــدأ المأذون على الفور مراسم عقد قران (علاء) و(أميرة) بإشارة أمر مــن المعلم (شحات) وهو ممدد فى فراشه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، ودون أن يجرؤ أحد على التفوه بحرف معارض لإرادته .

★ ★ ★

إنها دراما السماء التى لا دراما فوقها ، والتى كثيرًا ما يعجز الإنسان عن فك طلاسمها ..

ففى رحم السعادة والحياة الواعدة ماتت (سمر) عروسًا فى ثياب العرس قبل أن تُزف إلى حبيبها الواقف على بُعد خطوات فى انتظارها بفرحة عمره وبثياب عرسه ، بينما فى كنف الغم والموت المتربص وُلدت زيجة (أميرة) من نفس الحبيب الذى كان يقف على بعد خطوات منها ، يفترسه غم وتشاؤم لم يعرفهما فى عمره !!

وككل لبيب يجد نفسه فى مثل هذا الموقف لم يملك (علاء) إلاَّ أن يرفع وجهه نحو السماء مرددًا فى استسلام :

ـ حكمتك يا رب !!

كان لحظتها يقف فى شرفة شقة المعلم (شحات) المطلة على نيل (أغاخان) ، تاركًا نظراته الحزينة الذاهلة تسرى فوق صفحة النهر الناعس تحت عتمة الليل ، وما كاد ينطق بها حتى انتبه إلى يد تُوضع على كتفه من الخلف ، فاستدار فإذا بالمقدم (عصام) بقامته القوية الفارعة مثل أبيه ، وبوجهه العسكرى المتحفظ الذى لا يُفشى عن شىء مما بداخله .. أُسقط فى يده ، ولم يستطع إلا أن يتطلَّع إلى الضابط الشاب بحرج يغمرُه ، بل يكاد يعميه ، بينما راح الضابط يتأمله بنظرات تطفح غمًّا جعلته يتمنى لو أن الأرض تنشق وتبتلعه ، فلم يكن يتخيّل يومًا أن يجد نفسه فى هذا الموقف .. أن يكون له مكانٌ رسمىٌّ فى هذا البيت بهذه الطريقة .. طريقة الأمر المفروض من رب البيت على أهل البيت ، فلا يسمح له أدبه بالتصرف كصاحب بيت ، ولا يسمح له فى الوقت ذاته بالتراجع .. إنه حتى هذه اللحظة لا يشعر بنفسه إلاَّ أنه عامل أجير لدى هؤلاء الناس ، وما وجوده هنا بينهم إلاّ نبل

منهم ، ولكن بزواجه من ابنتهم بأمر من كبيرهم لم يعد من الأدب أبدًا الخروج من بينهم من تلقاء نفسه ، فما الحل إذن ؟ الحل أن يخرجوه هم من بينهم .. نعم ليس هناك ما يحله من هذه الورطة سوى هذا الحل ؟ فهل جاءه الابن الأكبر لهم والمسئول عنهم الآن بهذا الحل ليرحمه من هذا الموقف ؟ هل جاء لهذا ؟ تعلقت عيناه بعينى الضابط الشاب فى رجاء يبلغ حد التوسل ، لتمر عليه لحظة أثقل على قلبه وأعصابه من كل عذابه الذى تجرعه فى حياته بأسرها ، حتى كاد ينهار باكيًا متوسلاً للضابط الشاب أن يرحمه من هذا الموقف بالحل الذى يرضيه ، فإذا بالضابط يربت على كتفه بمنتهى الحنو ، قائلاً له بنفس طيبة أبيه :

ـ هيا يا عريس .. هيا ادخل لعروسك .. هيا ادخل لها ، وتصرف بحريتك .. أنت الآن صاحب بيت .

وانفجرت دموع (علاء) ، وأسرع يختطف يد الضابط ليقبلها ، ولكن الضابط ابن الناس كان أسرع منه بأن اختطفه فى حضنه ، وراح يضمه إلى صدره بكل الحب والحنان .

* * *

ومضى (علاء) إلى عروسه فى غرفتها ، فإذا بها تجالس أمها على حافة الفراش ، وتجاذبها أطراف الحديث .. حديث خافت يكاد يكون همسًا حزينًا ، فالحزن فوقهما باسطٌ جناحيه بسواده ، مظللاً وجهيهما بقتامته ، نافثًا أنفاسه فى قلبيهما ، غير عابئ بضعفهما .. فهمَّ بأن يتراجع قائلاً برأس منكس :

ـ لا مؤاخذة .. أنا آسف .

وإذا بالأم تناديه فى حنو .. توقف فى مكانه دون أن يرفع رأسه ، فنهضت هى متقدمة منه حتى وقفت أمامه تتأمله بنظرة حزينة مشفقة ، بادرته بعدها قائلة بصوتها الخافت الحنون :

ـ مبروك يا حبيبى .

لم يستطع لها ردًا من فرط حرجه ، فأردفت هى بحنوها :

ـ من الآن لا تخجل منى ، فأنا من الآن مثل والدتك .

أسرع يميل على يدها طابعًا قبلة مفعمة بكل البر والامتنان ، فما كان منها إلاَّ أنها ضمته فى حضنها ، ثم أوقفته بين يديها مردفة له :



ــ ما تشعر به أنت الآن نشعر به جميعًا ، فمصيبتنا فى المعلم هى مصيبة العمر ، ولكنه بإذن الله سينجو .

أسرع يجيبها بلهفة :

ــ بإذن الله يا ماما .. بإذن الله سوف يقوم بالسلامة ، وسيعود أقوى مما كان .

ــ بإذن الله يا حبيبى .. بإذن الله .

والتفتت إلى (أميرة) التى كانت تقف خلفهما ، وأردفت قائلة لها :

ــ مبروك يا حبيبتى .

وضمتها فى حضنها ، وأردفت هامسة فى أذنها :

ــ خذى بالك منه يا حبيبتى .. إنه مهزوز من الموقف ، ويحتاج إليك .

ــ حاضر يا ماما .

أجابتها (أميرة) همسًا حزينًا ، وتبادلتا قبلة مفعمة بالحب ، مضت بعدها الأم مغادرة الحجرة ، بينما ظل (علاء) واقفًا فى

مكانه ، مطرقًا بعينيه إلى الأرض ، لا يدرى ماذا يفعل أو يقول ، فما كان من (أميرة) إلا أنها أخذت بيده قائلة فى حنو :

ــ تعال .

وأجلسته على حافة الفراش ، وجلست إلى جواره تواجهه بوجهها ، وأمسكت بيديه مردفة له بمنتهى الأدب والحنو والرقة :

ــ علاء .. حبيبى .. أنا من اليوم زوجتك ، وأنت رجلى .. صحيح أن قلوبنا جميعًا تبكى دمًا على بابا ، ولم يكن هذا وقته أبدًا ، ولكنها مشيئة بابا بعد مشيئة ربنا سبحانه وتعالى .. بابا هو الذى أراد هذا ، وأمر به ، وهذا لا يعنى سوى أمر واحد ، وهو أن رضاك عنى سيسعده فى محنته ؛ لذلك فإننى أضع نفسى بين يديك .. زوجة محبة مخلصة ، مطيعة فى كل ما هو صواب ، فانس من الآن (أميرة) سيدة الأعمال القوية الآمرة الناهية .. انسها تمامًا ، ولا ترنى إلاَّ (أميرة) الزوجة المحبة المخلصة المطيعة لزوجها .

وإذا بالفتاة تميل على يده طابعة قبلة تصدّق بها على كل ما قالته ، فلم يملك (علاء) إلا أن يضمها فى حضنه بمزيج هادر من الإكبار والحب ، مرددًا من قلبه :

ـ نعم الناس يا بنت الناس .. نعم الناس .

★★★

الفصل الرابع

خمسة أشهر جلبت قدرًا معقولاً من التحسُّن للمعلم (شحات) ، مما جعل الأطباء يستجيبون لإلحاح أسرته لنقله إلى منزله ، وفى جو مهيب ، ووسط حشد هائل من أقاربه ورجاله تتقدمهم أسرته تم نقله فى سيارة إسعاف ، ولكن لا إلى شقة (أغاخان) ، بل إلى قصر فخم فوق (المقطم) ، كان قد بناه المعلم وأثثه منذ ما يزيد على السبع سنوات ، ثم فوجئ بزوجته ترفض الانتقال إليه ؛ لأنها صارت تعشق منظر النيل من شقتها ، ولكن الشقة لن تتسع الآن لزوار المعلم ، وبدا القصر وكأنه فى يوم عيد بدخول سيده .. صحيح أنه دخله محمولاً فوق نقّالة ، ولكن هيبته وحضوره الطاغى دخلوا معه ، وأعادوا الحياة إلى القصر الذى كاد الخراب ينسج فيه خيوطه .. وما أن استقر المعلم فى فراشه حتى طلب الدكتور (شاكر) الذى أشرف على نقله من البشر الذين يملئون الغرفة مغادرتها معه كى يستريح من عناء عملية النقل ، فراحوا

يتتابعون فى تقبيل رأسه ويده وتهنئته ومغادرة الغرفة حتى خلت عليه إلا من (رقيَّة) و(عصام) و(أميرة) و(علاء) ، وإذا بـ (رقيَّة) تميل على قدميه مقبلتهما وهى تقول بالدموع :

ــ حمدًا لله على السلامة يا سيدى وسيد الناس .. ألف ألف حمد لله على سلامتك .. نورت بيتك .

ولاحت على وجه المعلم ابتسامة واهنة ولكنها مفعمة بالرضا والامتنان ، وإذا بـ (أميرة) و(عصام) يحذوان حذو أمهما ، ثم إذا بالثلاثة يُفاجئون بـ (علاء) يميل على قدمى المعلم ليقبلهما مثلهم ، بل ويطيل فى تقبيلهما حتى سالت دموعه فوقهما ، وحتى فوجئوا بالمعلم يمد له يده ، مشيرًا له بأن يأتيه ، فأسرع (عصام) يربت عليه قائلاً بحنو :

ــ كلِّم المعلم يا (علاء) .

أسرع (علاء) يلبى إشارة معلمه ، فإذا بالمعلم يشير له بأن يقترب منه برأسه ، وإذا به يضع فوق جبينه قبلة تفيض حبًا

وحنانًا وامتنانًا .. قبلة لم يسبق له أن وضعها فوق جبين بشر غير أهل بيته .. وبلغت الرسالة الأم وابنيها .

★ ★ ★

بكل المقاييس اهتزت إمبراطورية الـ (شحات) البترولية بسقوط إمبراطورها المأساوى ، رغم استماتة رجاله ورجال (أميرة) فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ولكنهم رغم كل ما كانوا يبذلونه من جهود خالصة ظلوا فى حاجة ماسة لعودة (أميرة) .. إنها الوحيدة القادرة على إنقاذ هذه الإمبراطورية العملاقة ، ولكن عودتها بدت مستحيلة إلاَّ بأحد أمرين ، إما باطمئنانها تمامًا على المعلم ، أو بصدور أمر حاسم لها منه ، وهو ما حدث بالفعل ، فقد تلقَّت إشارة أمر من المعلم بأن تتولى مسئولياتها كاملة ، مقرونة بإشارة أخرى لها ذات مغزى إلى (علاء) ، ولم تملك الفتاة غير الإذعان ..

ومضت إلى الشركة بـ (علاء) ، وهناك دعت كل كبار مسئولى الإمبراطورية للاجتماع بها ، وإذا بها تستهل الاجتماع بتقديم (علاء) الذى كان يجلس إلى يمينها بصدر المائدة المستطيلة العملاقة بقولها :

ــ الأستاذ (علاء ربيع) زوجى .. ونائب المعلم (شحات) فى كافة أعماله .. ورأيه من رأى المعلم .. وكلمته هى كلمة المعلم .. كلمة نافذة لا ترد .

وكان رد جميع الرجــال على الفــور ، وفى إذعان ، موجهًا لـــ (علاء) :

ونحن جميعًا تحت أمرك يا (علاء) باشا .

★ ★ ★

وانفض الاجتماع الضخم بعدما تم طرح كافة تفاصيل الوضع الراهن للإمبراطورية ، لتنفرد (أميرة) بـــ (علاء) فى مكتبه قائلة بكثير من الأسى :

ــ كما سمعت يا (علاء) .. عملاؤنا من تجار السولار والبنزين وأصحاب المصانع ومحطات الوقود وغيرهم انقسموا إلى فريقين .. فريق فقدناه بانصرافه عنا وتعامله مع شركات أخرى منافسة لنا ، وفريق ظل محتفظًا بتعاملاته معنا رغم انخفاض توريداتنا له إلى حد كبيـــر ، وهو ما تسبب فى انخفاض أرباحه ، وربما كبده خسائر هائلة .

وكان رد (علاء) بعد لحظة تفكير :

ــ إذن فعلينـــا استعادة العمـــلاء الذين فقدناهم ، وتعويض العملاء الذين تضرروا من استمرارهم فى التعامل معنا ..

ــ بالضبط ، وهذا بمقدورنا .

ــ كيف ؟

ــ بتخفيض أسعار بضاعتنا ــ البنزين والسولار ــ عن أسعار الســـوق بقـــدر يدفع عملاءنا الذين فقدناهم إلى العـــودة إلينـــا مهرولين .



ـ والذين احتفظـوا بتعاملَاتهم معنـا رغم تضررهم نمنحهم تخفيضًا أكبر ؟

ـ لا يا باشـا .. خطأ .. أكبـر خطأ أن تتعامل مع عملائك بسعرين .. أن تميز عميل عن عميل.

ـ إذن بماذا سنعوضهم ؟

ـ بتعويض نقدى فوق تخفيض الأسعار .. تخفيض لا يشعر به أحد غيرهم فى السوق .

ـ تخفيض فى الأسعار ، وتعويض نقدى .. أليس هذا كثيرًا ؟ ألن يكون فيه خسائر للشركة ؟

ـ إلى هنا ربما لا تكـون فى الأمر خسائر ، وإنما الخسائر المؤكدة ستأتى من المشكلة الكبرى .

ـ المشكلة الكبرى ؟!

ـ نعم .

ـ أية مشكلة ؟

ـ سوقنا الدولية .

فوجئ .. فوجئ بشدة :

ـ ماذا ؟! الدولية ؟!

ـ نعـم .

وأردفت غير مبالية بدهشته العاتية :

ـ جزء كبير من إمبراطورية المعلم (شحات) يقوم على تصدير البنزين والسولار إلى بعض الدول العربية المجاورة ، وتحديدًا إلى « السودان » و« غـزة » .

ـ غـزة ؟!

ـ نعم « غزة » .. و« غزة » تحديدًا لها وضع خاص ، فأهلها وحكومتها يعتمدون إلى حد كبير فى استخدام البنزين والسولار على السوق الحرة ، أو بمفهوم المتخلفين « السوق السوداء » ..

ونحن من أكبر الشركات الموردة لهذه السوق ، وبالتالى فإنها تأثرت كثيرًا بكبوتنا ، وعلينا نجدتهم فورًا .

ـ وهل هذا بمقدورنا ؟

ـ نعـم .

ـ كيف ؟

ـ بتعـويض كـل العمـلاء والمسئولين المـوردين لنـا تعويضًا نقديًّا كبيـرًا عـن فتـرة توقـف أو ضـعف تعاملاتنا معهم ، وبالقدر الذى يغريهم بإمدادنا بكل الكميات المطلوبة منا وفورًا .

ـ ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟!

ـ ولكن واضح أن هذا أيضًا سوف يكلفنا كثيرًا .

ـ بل سيكبدنا خسائر ، ولكن لا حل صائبًا أمامنا غير هذا .

ـ وما الصواب هذا ؟!

ـ الصـواب فى استعادة حجـم نشاطنا كما كـان ، وعندئذ ستتحول كل هذه الخسائر إلى أرباح ، وأرباح مضاعفة .

لم يملك إلاَّ التسليم بمنطقها :

ـ الأمر لك يا أفندم .

فوجئت :

ـ أفنـدم ؟!

أسرع يعتذر بابتسامته المطفأة :

ـ آسف حبيبتى .. إنها العادة لا أكثر .. أنا آسف .

نهضت واقفة وهى تداعبه قائلة :

ـ لولا أنك حبيبى لكنت ....

أسرع يقاطعها باسمًا :

ـ كنتِ ماذا ؟!



ــ لا داعى ..

وضحكت مردفة :

ــ هيا بنا .

ــ إلى أين ؟

ــ ستعلم .

ومضت به إلى سيارتها ، وانطلقــت بهـــا ، بينما أشعل هو لنفسه سيجارة ، ثم رفع عينيه إلى الطريق ، فإذا بمفاجأة اليوم تختطف تفكيره .. مفاجأة النشاط الدولى لإمبراطورية المعلم (شحات) !! وإذا بالمفاجأة الأكبر تكمل عليه .. مفاجأة تنصيبه الرجل الثانى فى هذه الإمبراطورية بعد المعلم (شحات) !! ثم أين هو المعلم (شحات) ؟ صار بقايا فى فراش .. إذن فقد صار هو الرجل الأول فى هذه الإمبراطورية !! الإمبراطورية الدولية !! صار الإمبراطور !! نعم الإمبراطور !! إمبراطور يجلس على عرش إمبراطورية لا يعلم لها أحد حدودًا ، لا فى الحجم ولا فى الجبروت !!

أى إنسان به مسحة من عقل يمكنه تصديق هذا ؟! تكذيبه أهون كثيرًا من تصديقه ، فهو أقرب إلى شطحات أوهام مارقة ، ومع ذلك فقد حدث .. أليس كذلك ؟! والتفت بتساؤله الصارخ فى عينيه إلى (أميرة) المنطلقة بالسيارة ، فإذا بها تبتسم قائلة :

ــ مبروك يا جناب الإمبراطور .

لم يبارحه ذهوله حتى إنه لم يستطع لها ردًا ، فما كان منها إلا أنها هزت رأسها مشفقة عليه ، ثم أردفت قائلة :

ــ (علاء) حبيبى .. أحيانًا تكون الحقائق أكثر إثارة من الأحلام ، وفى هذه الحالة لا تجعل دهشتك منها تستنزف طاقة عقلك وأعصابك .

قالتها وهى تفتح موبايلها لتجيب عميلاً رن عليها ، وراحت فى مكالمة طويلة مع العميل ، لم تنهها إلاَّ وهى تتوقف فى توكيل (منصور شيفروليه) بـــ (الدقى) ، لتلتفت إلى (علاء) قائلة بابتسامتها الحلوة :

ـ هيا يا باشا .

وغادرت السيارة به ، وإذا بها تتوقّف به أمام السيارات الجديدة المعروضة ، وتسأله :

ـ ما رأى سيادتك يا باشا ؟

وكان رده مبتسمًا :

ـ فل يا باشا .. بكم الدستة ؟

ـ أنا لا أمزح يا باشا .. سألتك ما رأيك ؟

ـ رأيى فيم ؟!

ـ فى كرنڤال السيارات هذا ؟

ـ كل منها أروع من أختها .

ـ إذن اختر لك واحدة .

فوجئ :

ـ لى أنا ؟!!

ـ نعم .. لك أنت .

ـ كيف ؟!

ـ مثل الناس .. ستشترى سيارة .

ـ أنا ؟!

ـ نعم أنت يا زوجى العزيز .. ما الغريب فى هذا ؟! ستشترى سيارة باسمك ، وسيتم تسجيلها وترخيصها باسمك ، وستكون سيارتك ملكك .

كادت دهشته تجمّده فى مكانه وهو يحدّق مبهوتًا فى الفتاة ، فما كان منها إلاّ أنها أردفت قائلة له فى رفق :

ـ يا زوجى .. يا زوجى الحبيب .. ألم أنصحك من دقائق فقط بعدم إهدار طاقتك فى دهشة ساذجة .

ابتلع دهشته بصعوبة ، بينما فتحت هى باب سيارة « كروز » ذهبية وهى تقول له :

ــ أعتقـد أنها أجمـل ما فيهن ، فلونها يجمع بين الوقار والبهجة .. ها .. ما رأى الباشا ؟

ــ وهل للباشا رأى بعد رأى ملكة الذوق ؟!

قالها وانبهاره ودهشته يخطفان قلبه وعقله ، ويسطعان فى وجهه وهو يلتهم السيارة الفاتنة بعينيه ، فالتفتت هى قائلة لموظف المبيعات الذى كان قد جاءهما مرحبًا :

ــ أريد هذه السيارة للباشا .

ــ أمرك يا أفندم .. تفضلا معى فى المكتب .

ومضى أمامهما ، وهمت (أميـرة) بأن تمضى خلفه ، فإذا بـ (علاء) متسمرًا فى مكانه ، يحدّق فيها مبهوتًا ، فما كان منها إلا أنها سحبته من يده قائلة :

ــ هيا يا عم المذهول .. هيا .

ومضت به خلف الموظف ..

★ ★ ★

الفصل الخامس

ثلاثة أشهر لا أكثر وكانت إمبراطورية (الشحات) تتعافى تمامًا ، وكان (علاء) يتربع على عرشها فعليًا لا نظريًا .. فقد وضعت (أميرة) بين يديه كل الملفات ــ المباحة والمحظورة ــ وغمرته بكل ما لديها من خبرات ، ووضعت يده فى أيدى كافة رعاة الإمبراطورية السريين من كبار مسئولى الدولة ، وفى خلاصة الأمر وضعت الإمبراطورية بكل ثقلها بين يديه ، ووضعته مكان المعلم (شحات) بكل ما تعنيه الكلمة ، فصار الإمبراطور الفعلى شكلاً ومضمونًا .

وكان وقع ذلك على المعلم (شحات) أن زاده ارتياحًا واطمئنانًا ساعده كثيرًا على تحسن حالته إلى حد شجّع الأطباء المشرفين على علاجه على السماح له بمغادرة الفراش فوق مقعد متحرك ، ولكن داخل القصر ، وبالقـدر الذى لا يجهده ، وكان من نتيجة ذلك أن شاع فى القصر جو من البهجة ، فقد غمرت السعادة أهل القصر وزواره وخدمه ، وبدا المعلم ممتنًا لهم جميعًا ، ولكنه بدا أكثر امتنانًا وابتهاجًا بخليفته .. بـ (علاء) .. فقد راح يومًا بعد يوم يزداد يقينـًا بحسن ظنـه فيه ، ويشتد إحساسًا بأنه ابنه

الذى لم ينجبه ، فقد راح الفتى يؤكد بره وإخلاصه وحبه ووفاءه يومًا بعد يوم .. راح يزداد حضورًا رجوليًا مبهجًا يبهج القلوب من حوله ، ويزيدها تعلقًا به ، حتى بدا كشمس عفية مبهجة ، تزداد إشراقًا وإفرازًا للبهجة فى القلوب والنفوس ، وبالطبع كان الأكثر ابتهاجًا به هو المعلم (شحات) ، إلى حد أنه راح يردد فى نفسه ، معتمدًا حسن اختياره باطمئنان يغمره :

ـ نعم الابن ..

نعم الشباب ..

نعم الأمـــل ..

نعم الخليفة ..

★ ★ ★

بفخامة رجال الأعمال فى مظهرهم ، وبزهوهم بأنفسهم غادر (علاء) سيارته الشيك مع حارس القصر الذى استقل السيارة معه من البوابة ؛ ليقوده إلى صاحب القصر ، الذى كان يجلس إلى طاولة رخامية ضخمة على ضـــفة حمـــام السباحة ، والذى

ما إن شاهده مقبلاً عليـــه حتى نهض واقفًا من مقعده يسبقه ترحيبه الدافئ :

ـ أهلاً أهلاً .. (علاء) باشا .

وصافحه (علاء) بتبسم رصين :

ـ أهلاً بسيادتك يا معالى الوزير .

ـ تفضل .

وأشار له الوزير السمين بالجلوس ، ففعـــل ، بينما نهضت الحسناء العشرينية العمر التى كانت تجالس الوزير مستأذنته فى الانصراف ، فأذن لها قائلاً بابتسامته المفعمة بالسعادة :

ـ أراك غدًا .

وجاءه جوابها سريعًا بابتسامة نارية مثـــل ثيابها ومفاتنها ومكياجها :

ـ طبعًا يا معالى الـــ.......

أسرع الوزير يقاطعها محتجًا بابتسامته :

ـ هـــا !!

فما كان من الفتاة اللعوب إلا أنها أسرعت تعتذر بهياج ودلال فاقع :

ـ آسفة آسفة آسفة .

ومالت على أذنه هامسة بكلمة واحدة جعلت ضحكة الوزير تنطلق فى نشوة وهو يردد باستمتاع :

ـ نعم .. هكذا .

وأردف بنشوته :

ـ باى يا قمر .

ـ باى .

ومضت الفتاة إلى سيارتها التى كانت تقف على مقربة ، تاركة الوزير السبعينى العمر يلتهم أجزاء جسدها العارية بنظرة فجة حتى إذا ما ركبت سيارتها ، صاح بها :

ـ أتعرفين توكيل « B.M.W » ؟

ـ وهل فى (مصر) أحد لا يعرفه يا باشا ؟

ـ غدًا اذهبى إليــه .. ألقى لهم بهــذه المسكينة ، واسحبى سيارة جديدة .

فوجئت :

ـ معقول ؟!

ـ اسمعى الكلام .. الليلة سأعطيهم خبرًا بالتليفون .

ـ أمرك يا أعظم باشا فى (مصر) كلها .

صاحت بها بفرحة هائجة ، ومضت بالسيارة وهى تلوح له بيدها ، بينما (علاء) يردد فى داخله بمنتهى التقزز والسخط :

ـ ما شاء الله على حكامك يا (مصر) .

وانتبه على صوت الوزير .

ـ لا مؤاخذة يا (علاء) باشا .

ـ لا عليك يا معالى الوزير.

ـ ماذا تشرب ؟

ـ الموجود يا أفندم .

ـ كله موجود .. ها ؟

ـ قهوة زيادة .



طلبها الوزير من السفرجى الذى كان يقف على مقربة ، ثم التفت إليه قائلاً فى ود :

ــ كما تـــرى .. هنا .. بعيدًا عن البيت والوزارة أقابل الناس الذين أحبهـــم فقـــط ، وباعتبـــارك رجـــل المعلم (شحات) الذى يحبه ويثق فيــه ، فأنت من هؤلاء الأحبة فأهلاً بك .. بيتك ومكانك .

انسابت ابتسامة (علاء) فى امتنان :

ــ هذا كثير يا معالى الوزير .. ربنا ما يحرمنا من عطف معاليك .

وجاء السفرجى بالقهوة ، ووضعها أمام (علاء) فصرفه الوزير بإشارة من يده ، ثم التفت إلى (علاء) قائلاً :

ــ ندخل فى الشغل .

ــ تحت أمر معاليك .

أخذ الوزير نفسًا من سيجاره ، ثم نظر إليه قائلاً :

ــ نحن اليوم فى منتصف (يوليو) .. أول أغسطس ستزيد أسعار البنزين والسولار .. لتـــر البنزين من كل نوع سيزيد عشرين قرشًا ، ولتر السولار عشرة قروش ، أما لتر التوربابن فسيزيد أربعين قرشًا .

فوجئ (علاء) ، وانفلت تساؤله بصوت خفيض :

ــ عشرين ، وعشرة ، وأربعين ؟

ــ نعـــم .

ــ أليست الأخيرة هذه كبيرة بعض الشىء يا أفندم ؟!

ابتسم الوزير :

ــ ماذا يا عم (علاء) ؟ هذه الأخيرة تخص « التوربابن » .. « التوربابن » يا عمنا .. وقود الطائرات التى تتصارع عليه الدول .. القريب منها والبعيد ..

ــ مفهوم يا باشا .. أنا فقط كنت أقصد ...

أسرع الوزير يقاطعه بهدوء :

ـ يا حبيبى .. هذه الزيادات قرار حكومى .. لا قرار مصطبة ، ثم لا تجعلنى أغير رأيى فى ذكائك من بدايتها .

انفلتت هتفة (علاء) خافتة باسمة :

ـ لا يا باشا .. أنا آسف .. أنا تحت أمر معاليك .

ـ نعم هكذا يا عم (علاء) ..

وأخذ نفسًا آخر من سيجاره ، ثم أردف :

ـ والآن نأتى إلى السؤال الذى يهمنا .. أين أنا مـــن هذا الحوار ؟

ـ تحت أمر معاليك .

ـ أرباح هذه الزيادات سيتم اقتسامها مناصفة بيننا .

ـ أمرك يا أفندم .

ـ برافو .. هكذا تعجبنى .

أشعل (علاء) لنفسه سيجارة ، أخذ منها نفسًا سريعًا ، عاد بعده يقول للوزير برصانة متعمدة :

ـ معالى الوزير .. هل تسمح لى معاليك بأن أقول شيئًا أتمنى ألا تنساه لى أبدًا ؟

أومأ له الوزير بالموافقة ، فأردف (علاء) قائلاً :

ـ بقـــدر ما يشـــاء الله لى التعامل مع معاليك يمكنك اعتبار كل طلباتك منى أوامر غير قابلة للنقاش ، وملزم بتنفيذها على الفور ، وهذا إقرار منى بذلك ، ولو أردته معاليك كتابيًا لفعلته على الفور.

فوجئ الوزير ، وانبثـــق بداخله إحساس جـــارف بالرضا والإعجاب ، وفاض هـــذا الإحساس فى عينيه وهـــو يتأمل الفتى بنظرة طويلة ، وجد نفسه يقول له بعدها :

ـ وأنا سأكافئك فورًا على هذا ..

ـ يا معالى الوزير .. لقائى هـــذا بمعاليك أكبر مكافأة وأعظم شرف لمثلى.

ـ اسمعنى يا (علاء) .. طبعًا أنت رأيت محبس خط بنزين الواحات .

ــ حدث يا أفندم .

ــ هذا المحبس له محبس شقيق فى « العريش » لم يعلم به مخلوق حتى الآن .. اعتبره فى حيازتك .

فوجئ (علاء) بشدة :

ــ حقيقى يا معالى الوزير ؟!

حدجه الوزير بنظرة تحفظ على السؤال ، فأسرع (علاء) يعتذر فى أدب :

ــ أنا آسف يا أفندم .. إنها المفاجأة .

لانت أسارير الوزير ، بينما أسرع (علاء) يسحب نفسًا من سيجارته ، مستعينًا به على وقع المفاجأة ، عاد بعــده يسأل الوزير على استحياء :

ــ وهل لى يا أفندم حد أقصى للسحب منه ؟

ــ أيكفيك منه عشرة ملايين لتر شهريًّا ؟!

ــ فضل من ربنا يا باشا .

ــ إذن توكل على الله .

وسحب (علاء) نفسًا آخر من سيجارته ، عــاد بعــده يقول للوزير فى حرج :

ــ معالى الوزير ..

ــ خير يا (علاء) باشا ؟

ــ أستأذن معاليك فى تصرف أرجــو أن تتقبله منى بحسب نيتى ..

ــ ما هــو ؟

التفت (علاء) إلى الحارس الواقف على مقربة منهما قائلاً له :

ــ استأذنك فى إحضار الحقيبة التى فى المقعد الخلفى للسيارة .

جاءه الحــارس بالحقيبــة ، فالتفت إلى الوزير قائلاً بمنتهى الأدب :



ــ معالى الوزير .. هــذا أول لقــاء بمعاليك ، وهــو شرف عظيم لى ، وكان من اللياقة والذوق أن أحضر بهدية فى يدى ، ولكننى عجزت عن اختيــار الهدية التى تليق بمقــام معاليك ، فهدانى عقلى لأن أترك لمعاليك حرية الاختيار .

وفتح الحقيبة للوزير ، فإذا بها ممتلئة تمامًا بأوراق البنكنوت ، فكان سؤال الوزير له فى دهشة :

ــ ما هذا ؟!

ــ مليون جنيه يا أفندم .

سطعت فى وجه الوزير ابتسامة رضا ، ثم رفع عينيه إلى (علاء) يتأمله بنظرة ثاقبة من وراء دخان سيجاره ، جعلت (علاء) يسارع بالقول فى ارتباك :

ــ أنا آسف يا معالى الوزير إذا ما كنت أسأت التصرف .

وإذا بالوزير يبتسم قائلاً :

ــ هذه أجمل هدية جاءتنى .. أتعلم لماذا ؟

ــ لماذا يا أفندم ؟

ــ لأنها من شاب نقى .

وأخذ نفسًا آخر من سيجاره ، ثم أردف قائلاً لـــ (علاء) :

ــ اسمع يا فتى .. أنت دخلت قلبى ، ولهــذا أريد أن أخبرك شيئًا .. سوق النار .. أعنى السوق السوداء للسولار والبنزين يلعب فيها الآن تسعة تجار جبابرة وعاشرهم أنت ، ولكننى قررت الآن أن تكون أولهم ، بل ملكهم .

ضربت المفاجأة الفتى ، فجحظت عيناه على وجه الوزير ، بينما أردف الأخير :

ــ نعم يا فتى .. من الآن أنت .. ملك النار !!!!!

★ ★ ★



الفصل السادس

بدافع الحب الجارف المتدفق فى قلبها ، وعن طيب خاطر مضت (أميرة) فى انسحابها إلى الخلف مُفسحة الدرب لزوجها ، ليمضى قُدمًا نحو عرش إمبراطورية الـ (الشحات) ، حتى تربع فوقه ، وصارت فعليًّا إمبراطورية (علاء ربيع) ، بل بلغ بها الأمر حد إقناعه برأيها فى تأجيل الإنجاب ، رغم تعطشهما المحموم له ، حتى يستقر ويطمئن تمامًا فوق عرشه ..

وبسرعة تثير العجب راح حجم نشاط إمبراطورية (علاء ربيع) يتزايد ، وأرباحها تتضاعف ، وإمبراطورها الشاب يزداد قوة وسلطانًا على السوق ، حتى صار لقبه « ملك النار » وسيرته الأسطورية يمتدان من ألسنة الصبية الواقفين بعربات السولار اليدوية على جنبات الطرق إلى ألسنة زعماء حكومات دول مجاورة باتوا يعتمدون عليه فى سد جزء كبير من احتياجات شعوبهم إلى الوقود !!!

وبالطبع كان لا بد من مقر جديد للشركة يليق بالإمبراطور الجديد وإمبراطوريته ، فارتفعت فوق « جبل المقطم » بناية من

خمسة طوابق تم بناؤها وتجهيزها وتأثيثها على أحدث طراز عالمى، بينما على امتداد عرض واجهتها المرمرية التى يتجاوز العشرين مترًا ، وتحت سيل من الأضواء البيضاء تم تثبيت اسمها بحروف ضخمة من النحاس الخالص :

« الأميرة للمنتجات البترولية »

وفى حفل الافتتاح ، وعندما تم نزع الغطاء الورقى من فوق الاسم فى حضور حشـــد من كبار المسئولين ورجال الأعمال ووجهاء المجتمع يتقدمهم المعلم (شحات) فوق مقعده و(رقيَّة) و(أميرة) وشقيقها المقـــدم (عصام) كان أول تعليق من (أميرة) هو تساؤلها لـــ (علاء) أمام والديها وشقيقها وبقية الحضور:

ــ ألم تفكر فى تغيير الاسم يا ملك ؟

فما كان مـــن الملك الذى كان فى هذه اللحظة يفوق أروع نجوم السينما وسامة وأناقة وبهاءً إلا أن أجابها بابتسامة تفوق شمس الربيع إشراقًا وسحرًا ، ثم إذا به يميل على يـــد المعلم (شحات) فى مقعده المتحرك طابعًا فوقها قبلة مفعمة بكل البر والحب ، ثم يطبع نفس القبلة على يدى (رقيَّة) و(أميرة) ،

ثم يعتدل واقفًا آخذًا (عصام) فى حضنه ، مربتًا على ظهره بنفس شعوره المتدفق فى قلبه .

★ ★ ★

ـ جاءتنا دعوة خمسة نجوم .

قالها (علاء) وهو يرتدى روبه الحريرى المشمشى ، فكان سؤال (أميرة) له وهى تنهض من أمام التسريحة مقتربة منه بابتسامتها الساحرة :

ـ أية دعوة يا مُز ؟

تلقاها بين يديه مبتسمًا :

ـ دعوة من صديقنا معالى الوزير لحضور حفل زفاف ابنته يوم الخميس بعد القادم .

انفلتت مــن شفتيها الحمراوتين صــفارة إعجــاب ، أعقبتها بقولها :

ـ هكذا الحياة وإلاَّ فلا ..

ـ ماذا تعنين يا عسلية ؟

ـ أعنى المُزز الصواريخ اللاتى ستلتهمك فى الحفل يا قمر .

لم يتمالك ضحكته :

ـ وهل ستتركينى لهن ؟!

انفلتت منها ضحكتها ساخنة مفعمة بالشقاوة :

ـ لقد تركتك لهن بالفعل الليلة فى حفل الافتتاح .

ارتفع حاجبه من الدهشة ، بينما أردفت هى فى نشوة مدهشة وهى تعانق ملامحه الحلوة بعينيها وقد ومضتا بإعجاب طاغ :

ـ يا حبيبى .. يا حبيب قلبى وعقلى وروحى .. أنا مفتونة بك .. مفتونة بشخصيتك .. برجولتك .. بوسامتك .. بشياكتك .. بكل شىء فيك .. بك كلك على بعضك .. وعندما أرى إعجاب البنات بك أزداد افتتانًا بك ، ويطير قلبى من الفرحة ، وأجدنى أريد أن أهتف فيهن جميعًا بالصوت الحيّانى وبمنتهى الفخر بأن هذا المُز الأسد الذى ستموتن عليه هو مُزى أنا .. حبيبى أنا .. حبيبى أنا وحدى ، وهو يحبنى أنا .. أنا وحدى .. أنا وحدى من دونكن جميعًا .. أنا وحدى اختارنى قلبه .. وأحبنى .. وعشقنى .. ووهبنى نفسه .. وهمس لى أنا لك أنت .. أنت وحدك يا (مرمر) .. وحدك ولا أحد غيرك .

وجلجلت ضحكة الفتى الساحر :

ــ كل هذا ؟

أسرعت تقبض بيديها على صدر الروب وتسأله بتحفز ضاحك :

ــ ماذا ؟ ألم يحدث ؟

وجاءها جوابه مغزولاً من نبضات قلبه وهو يضمها بين يديه ، ويرتشف بعينيه من جمالها الذى أشعله فوران قلبها البكر :

ــ بل حدث ما هو أحلى وأروع من كل هذا يا معشوقتى .

ــ ما هو ؟

ــ نصَّبتك ملكة على قلبى .

كاد قلبها يتوقَّف :

ــ حقيقى يا (لوءة) ؟

ــ حقيقى يا قلب (لوءة) .. وعقل (لوءة) وروح (لوءة) .

وراح يحلق على وجهها الفاتن بنظـرة مغـردة بلحن قلبه العاشق وجد نفسه يداعبها بعدها بتساؤله فى تبسُّم :

ــ ولكن ألا تغـارين علىّ عنـدما تفاجئين بإحداهن تتجـاوز حدودها معى ؟

انفلتت ضحكتها النارية ، ثم كان جوابها وهى تلتهم ملامحه بنظرة من نار :

ــ ماذا تعنى بتجاوز حدودها معك ؟ أن تحاول إغراءك ؟ تحاول اصطيادك ؟ تلعب معك لعبة « أنا هنـــا » ؟ « أنا الأحلى » ؟ طبعًا أغار فى هذه الحالة .. ولكننى أغار غيرة جميلة .. غيرة تزيدنى جنونًا بك .. تُلهبنى أكثر عليك .. تُفجِّر رغبتى فى افتراسك .. تجعل كل ما فىَّ ينتفض لالتهامك أمام عيون هؤلاء المحرومات المسعورات حتى تتفحمن بكمدهن ، فأرقص أنا حافية فوق رماد قلوبهن بنشوة الانتصار .

وبُهت الحبيب المحظوظ ، وراح يحدّق فيها ببهوته ، بينما ابتسامته الذاهلة تتراقص على شفتيه ، فلم تملك إلاَّ أن تهتف به بتبسمها :

ــ هيه .. ماذا أصابك أيها الأسد الجميل ؟!

وكان جوابه مغمورًا بذهوله :

ــ ماذا أصابنى ؟! أصابتنى المفاجأة .

ــ أية مفاجأة ؟

ــ أنت ؟! أنت (الباشا أميرة) يخرج منك كل هذا ؟!

ــ ماذا تقصد بـــ (الباشا أميرة) هذه ؟

وفهمت فأردفت :

ــ آه .. تقصد سيدة الأعمال .. بنت السوق .. تاجرة السولار والبنزين ..

ووجدت نفسها تبتســـم وهى تهز رأسها مندهشة لأمره ، ثم مضت فى حديثها فى رفق :

ــ إذا كنت تقصد هذا فقد خانك ذكاؤك يا ملك السوق .. بنت السوق يا ملك هى الأوفر .. الأوفر فى كل شىء .. فى الذكاء .. فى الإحساس .. فى الأنوثة والروشنة والدلال .. وقبل كل هذا فى التقدم على جيلها .. فهى الأسبق .. وهى الأعلى .. وما تحسه .. وما تستوعبه يحتاج أبناء وبنات جيلها إلى سنوات كى يلحقوا بها فيه ، ولن يلحقوا .

ومضت عيناها بنظرة اعتزاز مدهش بالنفس جعلت فتاها يهمس لها مفتونًا بها :

ــ حقيقى حقيقى أنا لم أعرفك إلا الليلة يا مزة .

فوجئت :

ــ الليلة فقط ؟!

ــ فقط .

ــ وماذا عن الألف ليلة وليلة السابقة ؟!

ــ كنت فيها حمارًا .

شهقت من المفاجأة كاتمة ضحكتها :

ــ يا نهارك زيت محروق !!

ــ ماذا ؟ هل أخطأت ؟

ــ أخطأت !! سَل نفسك يا فصيح .. عندما يكون الزوج حمارًا ماذا تكون زوجته ؟

وضجا بالضحك :

★ ★ ★

عندما يعود ريفى بعد غياب إلى قريته يجتاحه شعور سمكة عادت إلى مياهها بعد عذاب جفاف قاتل على رمال شاطئ ألهبها القيظ .. بهذا شعر (علاء) وهو يستقبل بعينيه حقول قريته

وديارها وفلاحيها ومواشيها من داخل سيارته الجيب السوداء المصفحة بعد اغتراب سنوات بدت فى وجدانه وكأنها الدهر بأسره .. تبخَرت من داخله نفخة وقوة ومكر ودهاء رجال الأعمال مُفسحةَ السطح كى يطفو الطفل البرىء الرقيق المرهف الذى كان متقوقعًا فى الأعماق تحت ركام صراعات حياة المدينة الطاحنة التى تسحق وجدان الإنسان بغير رحمة ..

آااااه ..

آاااااه وألف آه مما فعلته به المدينة وفظاظة المدينة ..

وآااااااااااه وألف الف آه من وجع غربته وعذاب حرمانه من قريته الحبيبة ..

هنا فى قريته هذه التى تفوق أمهات الحمام على أفراخها حنانًا عاش طفولته .. عاشها فى الدار الصغيرة الدافئة .. فى الحقول التى لا تخلع عنها رداءها الأخضر الذى يفتـــن الروح .. فى الترعة التى لا تخلو مياهها من الطمى ولا من السمك ولا من ورد النيل .. فى الدروب الترابية التى يعانق ترابها أقـــدام الفلاحين وأطفالهم بحنان رءوم يخلو منه أسفلت شوارع المدينة ، وقبل ذلك كله بين الأهل الطيبين البسطاء الأنقياء ، المضفرة

قلوبهم ببعضهم البعض برباط إلهى مخضَّب بالتراحم والحب .. هنا كان الحب كله .. والحنان كله .. والطيبة كلها .. والقناعة كلها .. هنا كان فردوس تغرد الروح من نعيمه .. انتزعته منه مخالب الفقر ، لتقذف به فى جوف وادٍ ، الحياة فيه ليست سوى أتون مستعر ، وقوده وجدان الإنسان .. وادٍ اسمه « المدينة » ..

رفرف قلبه بين ضلوعه وهو يمضى بسيارته على طريق القرية الترابى فى رفق .. وتصاعدت خفقات القلب المتلهف وهو يقترب من دار أمه وأخوته ..

يا لوحشته لهم !!

ويا لوحشتهم له !!

انقضوا عليه يعتصرونه فى أحضانهم ، ويغمرونه بقبلاتهم فى فرحـــة هيستيرية ، هاج معها الدمع فى العيـــون مزاحمًا كلمات الترحاب المتدفقة من القلوب كالسيل الجارف المحموم ، حتى إذا ما هدأت عاصفة اللقاء كان إفصاح الابن العائد لأمه الحبيبة عما جاء به بعد كل هذه السنوات من الفراق ، وفى حضور الأشقاء والأهـــل :

ـ هيا يا أماه .. هيا معى إلى أكبر مستشفى فى « مصر » ، وأكبر أطباء ؛ ليزرعوا لك كلية جديدة تريحك من عذابك ، وتعيدك لنا بأمر الله حصانًا ما بعده حصان ، وإلى بيتك الجديد الذى سأشتريه فورًا .. أكبر وأجمل بيت فى الصعيد كله ..

★ ★ ★

الفصل السابع

فجأة سطع فى القاعة وهج غير مرئى ..

وهج فى الأفئدة ..

وهج فى الأعصاب ..

وهج فى العيون ..

وهج غمر قاعة الاحتفال بمن فيها ..

إنه حفل زفاف ابنة الوزير فى أفخم قاعات فندق « الفور سيزونس » ..

سكن الواقفون فى أماكنهم ..

وهبَّ الجالسون إلى موائدهم واقفين ..

وتوحّدت أبصار الجميع بقمة الانتباه والرهبة فى اتجاه واحد .. اتجاه السيد رئيس الجمهورية وزوجته سيدة « مصر » الأولى وهما يدخلان القاعة يقودهما الوزير والد العروس ، وقد بدا بانكماشه أمامهما ، واهتزاز كل ما فيه حتى ابتسامته كخادم يثير

الشفقة ، بينما بابتسامتهما المتعالية التى تُنعم بقدر محسوب من العطف على رعاياهما راح الرئيس والسيدة الأولى يصافحان الواقفين والواقفات فى استقبالهما بمدخل القاعة فى صف مستقيم مشدود كتلاميذ المدارس ، حتى إن المشهد أثار استفزاز إحدى المدعوات المسنات الأرستقراطيات ، فوجدت نفسها تهمس ساخرة لصديقتها الواقفة إلى جوارها فى آخر القاعة :

ــ ها هو (حسنى مبارك) الذى كانوا يشبِّهونه فى أولى سنوات حكمه بالبقــرة الضحوك .. صـــار قيصرًا ولا قياصرة الرومان إياهم !!

وفرغ الرئيس والسيدة الأولى من مصافحة مستقبليهما ، ومضيا خلف الوزير إلى طاولتهما فى صدر القاعة ، وهمًا بأن يجلسا ، فإذا بالرئيس يسدد نظرة باسمة إلى شاب رائع الوسامة والأناقة يقف بزوجته خلف طاولتهما بطرف القاعة ، ثم إذا به يشير لهما بأن يأتياه ..

ولم يكن الشاب الوسيم وزوجته سوى (علاء) و(أميرة) اللذين وجدا نفسيهما يتلفتان يمينًا ويسارًا بحثًا عمن يشير إليه الرئيس ، ظنًا منهما بأنهما ليسا المعنيين ، فإذا بالوزير يناديه بالاسم :

ــ عـــلاء !!

وسقط قلبا (علاء) و(أميرة) فى أقدامهما ، وأسرعا يتبادلان نظرة ذهول ، كادا معها يفقدان القدرة على الحركة ، لولا أن (أميرة) أسرعت تهمس للفتى بقمة الارتباك :

ــ تحرك يا (علاء) .. الرئيس واقف ..

فأسرع معها يلبيان إشارة الرئيس ، حتى وجدا نفسيهما وجهًا لوجه معه ، فإذا به يصافح (أميرة) قائلاً بنبرة وابتسامة كلهما أبوة ورقَّة وحنو :

ــ إزيك يا قمر ؟

وكان رد (أميرة) وابتسامتها ترتجف فوق شفتيها من الرهبة :

ــ الله يسلم سيادتك يا فخامة الرئيس .

ــ ألف سلامة للمعلم (شحات) .

وكاد قلب الفتاة يتوقَّف من المفاجأة ، وبدا ذلك جليًا من بهوت وجهها وتلعثمها وهى تجيب الرئيس :

ـ الله يسلم سيادتك يا فخامة الرئيس .

ـ أبلغيه تمنياتى له بالشفاء .

ـ أمر سيادتك يا فخامة الرئيس .

وترك يدها ليصافح (علاء) الذى بدا وهو يشاهد ويسمع ما يحدث وكأن حواسه كلها طُمست من هول ذهوله ، حتى إنه لم يدر كيف مد يده للرئيس ، ولا كيف سمعه ، ولا كيف أجابه ، وريقه يكاد يسد حلقه من هول الرهبة :

ـ الله يسلمك يا فخامة الرئيس .

ـ نجمك فى الطالع يا ملك النار .

وجحظت عينا (علاء) على وجه الرئيس ، وكأن قنبلة انفجرت داخل دماغه ، بينما أردف الرئيس قائلاً له بهدوء مثير :

ـ لا ترسل وقودًا إلى (غزة) .. (حماس) حقيرة لا تستحق .

★ ★ ★

فى النصف الخلفى مـن كابينة سيارته الليموزين السوداء المصفحة ، والمعزول عن كابينة السائق بحاجز زجاجى أسود عازل للصوت ، والمزود بأحدث جهاز كمبيوتر ، ونظام اتصالات خاص موصـول بالقمـر الصناعى ، وجهـاز فى حجم كاسيت صغير لإطلاق قذائف نارية مثبتة أسفل السيارة من الخلف طبقًا لنظام دفاعى خاص بالسيارات فقـط ، قام بتصميمه وتصنيعه وتثبيتـه بالسيارة سريًّا ـ مع قابليته للفك والتركيب فى حال صيانة السـيارة أو تجديدها مروريًّا ـ طالب عبقـرى بكلية الهندسة من عائلة المعلم (شحات) بعد أن بذل المستحيل لعرضه على كبار المسئولين فى « مصر » دون جـدوى ، فكان من نصيب (علاء) الذى علم به بالصدفة ، وفطن لقيمته ، فسارع بإعطـاء الفرصـة للطالب النابغة لتنفيذه فى سيارته هـذه بعـد تجربته عمليًّا فى إحـدى المنـاطق الصحراوية .. فى المقعد الخلفى لسيارته هذه التى باتت قلعة محصنة مسلحة متحركة جلس (علاء) و(أميرة) غارقين فى ذهولهما العاصف الذى غادرا به الحفل .. بدت (أميرة) وكأنها ضُربت على رأسها ضربة قاسية شرسة أطاحت بكامل وعيها وقدرتها

على أى فعل أو نطق إلاَّ من تساؤل واحد راح يتردد على شفتيها خافتًا ذاهلاً ، يكاد يقتلع عقلها معه :

ــ الرئيس ؟!!!!!

ــ الرئيس ؟!!!!!

وإذا بــ (علاء) ينتبه إليها من ذهوله ..

وإذا به يلتفت إليها وقد انقلب ذهوله كله شيئًا غريبًا ومثيرًا وغامضًا فى موقف كهذا !!

انقلب ابتسامة !!

نعم ابتسامة !!

ففى لمح البصر قفز إليه من الماضى .. من نحو سبع سنوات .. وجه وصوت (حسين) العامل الواقف بعربة السولار اليدوية على الطريق فى (الخصوص) وهو يصف له سلسلة مهربى السولار والبنزين بقوله : « يا صاحبى .. إنها مافيا .. مافيا أكبر من المافيا التى نسمع بها ، أو نشاهدها فى الأفلام الأمريكية .. مافيا تبدأ بنا نحن الواقفين بهذه العربات والبراميل على الطريق ، ولكن من المستحيل أن تعرف أين تنتهى » .

ووجد (علاء) نفسه يتمتم بابتسامة النصر ، وبنظرة وامضة شاردة بعيدًا بعيدًا إلى (حسين) :

ــ الآن عرفت بمن تنتهى يا صاحبى .. الآن عرفت .

وأطلق من أعمق أعماقه زفرة أشد التهابًا من الجمر المتقد ، وانتبهت إليه (أميرة) ، فالتفتت إليه تسأله بغمرة ذهولها :

ــ ماذا قلت يا حبيبى ؟!

وكـــان رده وهــو يحملق فى وجهها الذاهـــل بنظرة باسمة مشفقة :

ــ لا شىء يا حبيبتى .. لا شىء .

وما كاد يتمها حتى كان موبايله يرن ، وما كاد يصغى لأولى كلمات محدثه حتى كانت صرخته تنطلق منه بعصبية مخيفة :

ــ ماذا ؟!!



وراح يصغى لمحدثه بغضب هيستيرى ، حتى إذا ما فرغ محدثه سارع بغلق الموبايل ؛ ليطلب رقمًا آخر ، صارخًا فى محدثه :

ــ (تايسون) .. الحق بى بخمسمائة رجل مسلحين عند الكيلو تسعين على طريق « الواحات » .

وضرب الذعر (أميرة) ، وما كاد يغلق موبايله حتى كانت تهتف به بذعرها :

ــ حبيبى .. ماذا حدث ؟!!

وكان رده وهو يضغط صفى أسنانه ببعضهما حتى كاد يحطمهما غيظًا :

ــ حشرة .. حشرة حان الوقت لسحقها ..

وضغط زرًا ضــمن لوحة أزرار مثبتة أمامه ، فتحرك الحاجز الزجاجى كاشفًا عن السائق الخمسينى العمر ، فأمره بالتوقف جانبًا ، ثم كـــان أمره التـــالى فى الموبايل لقائد طاقم حراسته

الخاصة التى تتبعه فى سيارة چيب ضخمة مهيبة بأن يتوقف ويأتيه فورًا ، فجاءه مهرولاً منزعجًا :

ــ خير يا باشا ؟!

ــ هات رجلين من رجالك هنا معى ، وخذ الهانم معكم إلى القصر .

وفوجئت (أميرة) ، وأسرعت تمسك بيده قائلة بقلق عليه :

ــ حبيبى دعنى معك .

وكان رده فى رقة تزيِّن حسمه :

ــ لا يا حبيبتى .. عودى إلى القصر ، وسوف أطمأنك علىَّ .

لم يهدأ قلقها ، وبدا عليها التردد الشديد فى تركه ، فأخذ برأسها بين يديه ، طابعًا قبلة حنون فوق جبهتها ، عاد بعدها يكرر مطلبه فى رفق :

ــ هيا يا حبيبتى حتى ألحق بالرجال .

تأملته بنظرة واجفة تهدر قلقًا عليه لم تملك بعدها إلاَّ الانصياع لأمره ، فمالت على يده طابعة قبلة حميمة ، مضت بعدها مع الحارس إلى سيارة الحراســة ، وانتظر هــو حتى تحركت بها ، ثم أشار للحارسين بالركوب معه ، وأمر السائق بالانطلاق ، ولم يستغرق السائق المخضرم من الوقت أكثر من الساعة ونصف حتى كــان يتوغــل بهم فى جــوف صحراء « الواحات » ، متقدمًا ما يزيد على العشرين باصًا محملة برجال مسلحين بمدافعهم الرشاشة ، ودون أن تضىء سيارة واحدة منها ـ بما فيها ليموزين (علاء) ـ مصباحًا واحــدًا رغم الظلام الدامس ، حتى توقفت الليموزين فتوقف السرب كله رغم عدم ظهور أى شىء فى المكان ، فقد كان واضحًا أن (علاء) يعرف غايته جيدًا ، وأنه قرر الزحف إليها بجيشه بدون السيارات .. كان الوقت يقترب من الفجر ، وكان ليل « ديسمبر » الموحش يلف البقعة التى انطلقوا يزحفون فيها على بطونهم فوق رمالها كالحيات الصحراوية ، يتقدمهم (علاء) بجسارة مذهلة ، رغم العتمة القابضة الحالكة الســواد ، فلا أثر لقمر فى السماء ،

ولا حتى نجم واحد ، ولا شىء سوى زمهرير يقرص الأبدان بقسوة ، ورياح ثلجية تعوى كالذئاب الجائعة ، حتى لاحت لهم ضالتهم .. جمع من الأشباح ، بعضها يحيط بخط أنابيب بنزين « الواحات » ، وبعضها الآخر يتحرك بتعجل وتوتر ما بين خط الأنابيب وبين عــدد مــن شاحنات بترولية تحيط بالخط فى عشوائية واضحة .. كان من الواضح أن الأشباح الشقية تسابق الزمن لتنهى مأموريتها بسلام ، ولكن فجأة ...

فجأة توقف بهم الزمن ..

وتجمد كل منهم فى مكانه على وضعه ..

فقد فوجئ كل منهم بفوهة مدفع رشاش فى رأسه ، وأكثر من عشرين يدًا تقوم بتكبيله بالسلاسل الحديدية ، ليُساقوا جميعًا إلى الباصات كالأغنام ..

أما زعيمهــم (رفعت) فقــد فــوجئ بفوهــات أكثــر من عشرين بندقيــة آليــة فى رأســه ، وبأكثــر مــن خمسين يدًا

تقوم بتكبيـل يديه وقدميه وجسـده كله بالأغـلال ، وتعصيب عينيه ، وتقـذف به فى باص خاص به وحـده دون أن يرى (علاء) ..

★ ★ ★

الفصل الثامن

مثل وحش كاسر ظفر بفريسة أكثر من مستحيلة انفجر (علاء) ضحكًا فى نشوة هيستيرية ، حتى إن صدى ضحكاته الجبارة العفيـة راح يتردد برنين مريع بين جنبات المخزن الضخم الخاوى إلاَّ من طاولة حديدية صغيرة ومقعدين خشبيين قديمين ، تهاوى الفتى بأحدهما من شدة نوبة ضحكه ، حتى إذا ما تمالك نفسه ألقى بموبايله « الثريا » وسلسلة مفاتيحه الذهبية ، وساعته الماسية التى يزيد ثمنها على المليون جنيه ومسدسه الضخم سريع الطلقات أمامه فوق الطاولة ، ثم أشار لرجاله المحيطين بفريسته المكوَّمة فوق الأرض بأغلالها المحكمة ، فسارعت مجموعة بإزاحة الطاولة جانبًا ، بينما سارعت مجموعة أخرى برفع الفريسة فوق المقعد الآخر ، وتقييدها به ، ثم حملها بمقعدها ووضعها أمام (علاء) ، ورفع العصابة السوداء عن عينيها ، فكانت ...

كانت اللحظة التى ضرب الزمن عندها فرامله بأقصى قوته وانفعاله فى وجدان الفريسة والوحش ..

يا الله !!!!!



يا الله على دراما الأقدار ، وقدرتها على الوصول ببعض أحداث الحياة إلى مثل هذه اللحظة ومثل هذا الحدث !!!!!

اللحظة الأكثر من مستحيلة !!!!!

والحدث الأبعد كثيرًا كثيرًا عن خيال أشد عقول البشر خيالاً وشططًا !!!!!

فالمكان نفس المكان !!!!!

وبطلا الحكاية هما نفس البطلين !!!!!

ولكن الفارق عظيم عظيم عظيم .. بين الأمس البعيد واليوم .

الفارق فى انقلاب الفأر ـ نعم الفأر .. فأر الأمس .. بكل ضعفه .. بكل هوانه .. بكل عجزه ـ وحشًا .. وحش كاسر .. جبار .. تكاد كل قوى الأرض وجبروتها تتضاءل فى قبضته من هول ما بلغه من قوة وجبروت !!!!!

وانقلاب الأسد ـ أسد الأمس .. الأسد الهصور ـ فأرًا .. نعم فأرًا .. فأرًا تكفى ضغطة تافهة عليه مـن أضعف قدم لسحقه وتسويته بالأرض !!!!!

إنها دراما الأقدار التى فرملت الزمن على لحظة تلاقى عيون الاثنين ، وقد انفجر بضراوة إحساس كل منهما فى عينيه ..

ذهول ساحق للعقل والحواس والإحساس فى عينى (رفعت) .. ذهول سحق كل ما يصله بالحياة إلاَّ أنفاسه اللاهثة المتلاحقة من هول وفظاعة الصدمة ..

وشماتة متأججة .. مستعرة .. فائرة .. بدت وكأنها قطعة حية من جهنم فى عينى (علاء) رغم بريقها الباسم .. شماتة دفعته لأن يطيــل الغوص ويطــوف فى أعماق فريسته بنظرته المتفجِّرة شماتة ، ثم كان ترحيبه بها بهدوء مثير ، وبابتسامة أكثر شماتة من نظرته :

ـ إزيك يا معلم .... (رفعت) ؟

ولم يجبه (رفعت) ببنت شفة ، ولم يطرف له جفن ، فما كان من (علاء) إلا أنه أشعل لنفسه سيجارة ، أخذ منها نفسًا طويلاً ، ونفخ دخانه كله فى وجهه ، ثم أردف قائلاً له بنفس هدوئه وابتسامته :

ـ دعنى أولاً أقول لك شيئًا جانبيًا .. أتعلم لماذا كنت أضحك كل هذا الضحك ؟! لأننى اليوم ، واليوم فقط اكتشفت كم أنت غبى وغشيم ! وكم كنت أنا مخدوعًا فيك ، وفى دماغك هذا !!

وأخذ نفسًا طويلاً آخر من سيجارته ، وكرر نفس فعلته بنفخ دخانه كله فى وجهه ، ثم مضى مستطردًا فى تعجُّب بالغ :

ـ يا رجل !! يا رجل !! هل يُعقل أن تقف فــوق خط وقود حكومى ، وتسطو على ما فيه من وقود بكل هؤلاء الرجال والشاحنات والجلبة دون أى تمويه أو تدابير أو حذر ؟!! معقول هذا ؟!!

ألم تنقل لك عصافيرك ما نقوم به من تمويه وما نتخــذه من تدابير ونحن نتعامل مع هذا الخط أو أية خطوط أخرى ؟! ماذا يا عمنا ؟! ماذا ؟! هل ظننت نفسك تنزح مياها من ترعة بلدكم ؟! هذه واحدة !!

أما الثانية .. هل وسوس لك غباؤك بأننا من الممكن أن نترك محبسًا سريًا بهذه الخطورة ـ محبسًا نشفط منه ملايين اللترات بصفة دورية ـ دون عيــون تحرسه ؟!! هل خدعك وجوده فى صحراء مكشوفة وأنه بلا حراسة ظاهرة عليه ؟! غبى .. غبى وأغبى ما خلق رب العبــاد ، ومع ذلك لا تغضب يا عــم الغبى ،

فغباؤك هذا شىء غالٍ .. غالٍ جدًا ، أغلى من كل كنوز الدنيا ، ولكن عندى أنا وحدى .. أتعلم لماذا ؟ لأنه هو الذى مكننى منك ، وجاء بك إلى هنا ، ولو كان يسمعنى الآن ـ أقصد غباءك ـ لكنت شكرته ، وعملت معه أحلى واجب ، فشكرًا لك بالنيابة عنه ..

وانفجر ضحكًا مرة أخرى بنشوته الهيستيرية ، بينما انسابت من (رفعت) غمغمته الذاهلة بغيظ يكاد يُفجّر صدره :

ـ يا بن الكلــ........

ولم يكملها .. طار بعيدًا بمقعده ليسقط فوق الأرض سقطة مدوية بركلة وحشية من (علاء) وهو ينتفض واقفًا بغضب مسعور ، مختطفًا المسدس من فوق الطاولة ، ومسارعًا بشد أجزائه ، فإذا برجاله يقفزون معًا قابضين على يده بالمسدس ، تسبقهم صرخة أحدهم فى فزع وذهول :

ـ (علاء) باشا !!

وفوجئ (علاء) بتصرف الرجال ، بينما أسرع رجل ثان يقول له بمنتهى الرجاء والإخلاص :

ـ لا يا باشا .. لا تُضيِّع نفسـك فى خـروف .. نحن فداك ، ثم لا تنس أنه شقيق المعلم (شحات) .

وانفلتت صرخة (علاء) بعصبيته المؤلمة :

ـ المعلم (شحات) ؟! المعلم (شحات) الذى قضى عليه .

وكان رد رجل ثالث :

ـ إنه تحت قدميك يا باشا .. افعل به ما شئت إلاَّ القتل لأجل المعلم (شحات) .

وانفلتت صرخة (علاء) للمرة الثانية :

ـ هو الذى فجَّر المعلم (شحات) .. هو الذى فجَّره .

وأسرع يجيبه رجل رابع :

ـ مستحيل يا باشا .. مستحيل أن يفعل هذا بشقيقه .

وأسرع يجيب الرجل بصراخه :

ـ لماذا ؟ هل تعتقدون أنه إنسان ؟ إنه كلب .. هو الذى فعلها .. هو ، وسأثبت لكم .. هاتوه .

وأسرع الرجال يرفعون (رفعت) بمقعده من فوق الأرض ، ويضعونه أمامه ، فجلس (علاء) يلتهمه بنظراته المتفجرة غلاً وسخطًا ، ولكنه سرعان ما تنبه إلى ضرورة تشغيل عقله والسيطرة على انفعاله ، فأشعل سيجارة ، وراح يهدئ بها أعصابه المشتعلة وهو مطرق بنظراته إلى الأرض ، حتى بردت أعصابه كثيرًا ، وصفَا عقله ، فرفع عينيه إلى (رفعت) قائلاً بهدوء :

ـ اسمع يا (رفعت) ! اسمعنى جيدًا .. ليس الذى يمنعنى عن قتلك هو أنك شقيق المعلم (شحات) .. كما يرى الرجال .. الذى يمنعنى عن قتلك هو أنه هناك ما هو أشد وأنكى من القتل .. أتعلم ما هو أشد وأنكى من القتـــل ؟ العار .. العار يا معلم (رفعت) .. العار الذى إذا ما لحق برجل صعيدى ظل يقتله طيلة عمره مع كل نفس يتنفسه .

ونزلت الكلمات على (رفعت) حارقة كماء النار ، فاندفع يتلوى فى قيوده بهياج وعصبية محاولاً التحرر منها ، فما كان من (علاء) إلاَّ أنه ابتسم مردفًا بهدوئه :

ـ اهدأ .. اهدأ يا رجل وانتظر ، فأنا لم أقصد بالعار تكبيلك بهذه الطريقة المهينة ، وإنما قصدت ما هو أنكى كثيرًا من هذا .

وإذا به يمسك بموبايله « الثريا » من فوق الطاولة ، ويبدأ فى تصوير (رفعت) ، ليجُن جنونه ، ويعاود التلوى فى قيوده بهياج هيستيرى ، بينما (علاء) يواصل تصويره بنشوة ، فيزيده جنونًا وهياجًا ، حتى توقّف الفتى عن التصوير ، وعاد ينظر فى عينى (رفعت) قائلاً :

ــ هذا هو ما قصدته بالعار يا معلم (رفعت).. عمل كليبٍ مثيرٍ لك وأنت مُكبَّل هكذا ، ثم وأنت مُعلق من قدميك فى السقف كالخروف ، ثم توزيع هذا الكليب الجامد على زوجتك وأولادك وعائلتك ، وكل من تحبهم ويحبونك ، وبعد توزيعه على كل هؤلاء نقوم برفعه على اليوتيوب ؛ ليظل عارًا أبديًّا يُدمر أولادك وأحفادك وذريتك كلها إلى يوم الدين .

صاعقة .. صاعقة كادت تصرع (رفعت) فى قيوده .. تجمَّدت عيناه على وجه (علاء) ، وقد فاض بجبروت يجبُن أمامه أشد القلوب جسارة .. فرت شجاعته كلها من قلبه تاركته يغرق فى جُبنه ، وجف حلقه ، فراح يجاهد فى ابتلاع ريقه كى يستطيع النطق ، حتى خــرج منــه تساؤله غارقًا فى ذعره وانكساره :

ــ لِمَ كل هذا ؟!

ــ لشىء واحد فقط يا معلم .

ــ ما هو ؟!

ــ أن تقول من فجَّر المعلم (شحات) .

لم يكن (رفعت) فى حاجة إلى السؤال ليعرف أن هذا هو المطلوب منه ، ولكنه فى ذات الوقت بدا وكأن الجواب محشورٌ فى حلقه .. مرت لحظة طويلة دون أن ينطق ، فنطق (علاء) قائلاً لرجاله بهدوء دون أن يزحزح عينيه الباردتين عن عينى الجبــان :

ــ هيا يا رجــال .. برفق .. بمنتهى الرفق .. ارفعــوا المعلم (رفعت) من قدميه إلى السقف .

وهمَّ الرجال بالتنفيذ ، فكانت صرخة (رفعت) سريعة كالقذيفة :

ــ أنــا .

انسابت ابتسامة (علاء) العريضة على شفتيه ، والتفت إلى رجاله منتشيًا بصحة حدسه ، فإذا بالرجال جميعهم يسارعون فى حركة واحدة بتصويب بنادقهم الآلية نحــو (رفعت) لتمزيقه

بنيرانها ، لولا هتفة (علاء) السريعة التى سبقتهم مع إشارة أسرع من يده :

ـ لا .

وتسمَّرت أيدى الرجال على البنــادق ، وتسمَّرت عيونهم الغاضبة بسخطها العاتى على (رفعت) ، حتى جاءهم الأمر الثانى من (علاء) ، وعيناه كما هى تخترق عينى (رفعت) :

ـ اخفضوا السلاح :

ونزلت أيادى الرجال بالبنادق ، فعاد (علاء) يقول لـ (رفعت) بهدوئه المثير :

ـ تكلم يا معلم (رفعت) .

ازدرد (رفعت) ريقه ، ثم تكلم :

ـ أنا .. أنا و(ناصر) .

ـ (ناصر) شقيق المرحومة (سمر) ؟

ـ نعـم .

ـ لمـاذا ؟

ـ لكى ننقذ شقيقتنا (عزيزة) من الجنون .

فوجئ (علاء) :

ـ الحاجة (عزيزة) أم (سمر) ؟!

ـ نعـم .

ـ وما دخلها بالأمر ؟!

ـ كانت ستُجن إذا لم نقتل (شحات) .

انتفض (علاء) واقفًا مصعوقًا :

ـ ماذا ؟! الحاجة (عزيزة) ؟! تقتل المعلم (شحات) ؟! شقيقها ؟!

أطرق (رفعت) مجيبًا :

ـ نعم .

ـ لماذا ؟!

لم يجب (رفعت) ، وظل مطرقًا ، فكانت صرخة (علاء) فى وجهه وهو يميل عليه :

ــ انطق يا حيوان !

ــ لأنه هو الذى قتل (سمر) .

ــ ها ؟! ماذا قلت ؟!

خرجت من (علاء) ببهـــوت من بُوغت بطعنة سكين مفاجئة من معتوه ، وجحظت عيناه وهو يدنو بهما من عينى (رفعت) حتى بدا وكأنه سيلتهمه ، وأردف يسأله ببهوته :

ــ ماذا قلت يا معتوه ؟!!

وإذا برد (رفعت) فى هدوء وانكسار :

ــ قلت الحقيقة .

ــ أية حقيقة ؟!!

ــ (شحات) هو الذى قتل (سمر) .

ــ كيف ؟! كيف قتلها ؟!

ــ بعلبة الكوكاكولا التى أعطتها إحـــدى الفتيـــات المدعوات لـــ (سمر) وهى بين يدى الكوافير .

ــ وهل الكوكاكولا تقتل ؟!

ــ الكوكاكولا كانت بها سم .

ــ ســـم ؟!

ــ نعم .. سم سائل بنفس لون وطعم الكوكاكولا .

بدا (علاء) وكأنه يواصل الإصغاء لهذيان مختل عقلى ، فراح يواصل تحديقه فى عينى (رفعت) بعينيه الجاحظتين وهو لا يدرى ماذا يفعل به ليرده عـــن هذيانه هـــذا ، حتى فوجئ بـــ (رفعت) يقول له بمرارة :

ــ يا (علاء) .. (الشحات) شقيقى و ....

ولم يكملها .. انطلقت هتفة (علاء) فى وجهه بسخرية هادرة ، تلاشى معها ذهوله كله دفعة واحدة ، وارتدت له حيويته كاملة :

ــ وهذا هو مربط الفرس يا عم (رفعت) .. هذا هو مربط الفرس .. أن المعلم (شحات) شقيقك .. شقيقك الذى تكرهه كراهية العمى .. الذى يمتلئ قلبك عليه حقدًا أشد سوادًا من قرن

الخروب .. شقيقك الذى تتمنى له مصيبة تنسفه نسفًا ، وتمسحه من فوق الأرض ، ومن هنا جاء حوارك هذا المختل مثل عقلك عن قتله لـــ (سمر) .. (سمر) التى كانت فى قلبه مثل ابنته .. مثل (أميرة) .. (سمر) التى كان يسعى لإسعادها وإرضائها بكل وسيلة .. التى لم يتأخَّر عنها لمرة فى تلبية حاجة أو تحقيق رغبة لها .. التى جهَّزها من الألف إلى الياء بغاية السعادة ؛ ليزوجها لى .. التى كاد خبر موتها يقضى عليه .. التى بكاها أكثر من أمها ونحن ندفنها .. (سمر) هذه قتلها خالها هذا الذى كان يحبها كل هذا الحب .. أليس كذلك ؟! أليس كذلك يا معلم (رفعـــت) ؟! أليس كذلك يا رجال ؟!

والتفت إلى رجاله يدور عليهم بنظرة تهدر سخريةً وعصبية ، فلم يلق على وجوههم غير السخط على (رفعت) ، والرغبة المستعرة فى الفتك به ، فعاد يحدجه بنظرته الساخرة ، فإذا به يُفاجأ به يبتسم قائلاً فى مرارة وهدوء :

ــ خسارة .. خسارة يا (علاء) باشا .. كنت أحسبك أذكى من ذلك .

وهز رأسه متعجبًا ، ثم أردف يسأله :

ــ أكل هذا الحب كان فى قلب أخى (شحات) لـــ (سمر) ؟! هل كان قلبه يمتلئ عن آخره بالحب لها ؟! إذن ماذا عن (أميرة) ؟ ألم يكن لها نصيبًا فى قلبه بالمرة ؟ (أميرة) ابنته ؟ ابنته وليست بنت أخته ؟ ابنته من صلبه ؟ ابنته التى هى أغلى عليه من عينيه ؟ من روحه ؟ من حياته كلها ؟ تتكلم عن (شحات) الذى وهب لـــ (سمر) جهازها اللازم لزواجها ؟! فماذا عن (أميرة) التى وهبها شركاته ورأس ماله وأملاكه وإمبراطوريته بالكامل ؟ ثم ماذا لو ....

وسكت فجأة متفرسًا (علاء) بنظرة استفزازية ، جعلت الأخير يصرخ فيه بعصبيته المفزعة :

ــ لماذا خرست ؟ أكمل يا فيلسوف الغبرة ! أكمل !

وأكمل (رفعت) بهدوئه الاستفزازى :

ــ ماذا لو تعارضت سعادتا الطرفين (أميرة) و(سمر) ؟!

وفوجئ (علاء) :



ــ تعارضت سعادتاهما ؟!

ــ نعم .. نعم يا (علاء) باشا .. ماذا لو وجد المعلم (شحات) نفسه أمام اختيار فاصل بين سعادة (أميرة) وسعادة (سمر) ؟ بل ماذا لو فوجئ بأن بقاء (سمر) على قيد الحياة سيعنى تحطيم (أميرة) ؟ تحطيم قلبها وكبريائها ؟ تحطيم هيبتها التى أفنى فى بنائها عمره بأكمله ؟ ماذا وقد فوجئ بـ (سمر) تمسح بكرامتها الأرض أمام موظفيها ؟ ثم فى المجلس العرفى أمام كبار رجال العائلة الذين كانت تسوقهم جميعًا بإشارة من أصبعها ؟ ثم ماذا لو اكتشف أن (أميرة) تحبك وسعادتها فى زواجها منك ؟

ودون أن يعبأ بالذهول الهيستيرى الذى أطبق على (علاء) ، حتى كاد يفقده عقله ، أردف ملقيًا عليه بسؤاله ، ولكن بمنتهى التروى ، وكأنه يعد كلماته كلمة كلمة :

ــ ماذا يا (علاء) باشا ؟ ماذا لو كانت هذه هى الحقيقة مع رجل يحب ابنته بهذا الهوس ، ولديه الاستعداد لفعل أى شىء ــ أى شىء ــ فى سبيل سعادتها وكرامتها ؟

وسكت متطلعًا إلى (علاء) منتظرًا جوابه ، فلم يجبه الفتى إلاَّ بنظرة متفرسة طويلة ، عاد بعدها يجلس فى مقعده ، مشعلاً سيجارة لنفسه ، وراح مع تدخينها يجاهد فى استعادة رباطة جأشه ، حتى نجح إلى حدٍّ ما ، فرفع عينيه إلى (رفعت) قائلاً له بهدوء :

ــ قلت ما عندك يا عم (رفعت) ؟! قلت كل ما عندك ؟! حللت وفسَّرت ونجَّمــت واتهمت الرجل بالقتــل ، وجعلت منه قاتلاً ؟!

وكان جواب (رفعت) بهدوء أيضًا :

ــ لست أنا من اتهمه ، بل شقيقتنا .

ــ شقيقتكما ؟!

ــ نعم .

ــ إذن دعنى أسألك يا عمنا سؤالاً واحدًا .

ــ سل ما شئت .



ـ من أين علمت شقيقتكما بأن المعلم (شحات) هو الذى قتل المرحومة ؟ بل من أين لها بفكرة أنها قُتلت من الأصل ؟

ـ من الرؤيا .

فوجئ (علاء) ، وأسرع يتبادل نظرة دهشة مع رجاله ، عاد بعدها يسأل (رفعت) بدهشته :

ـ الرؤيا ؟!

ـ نعم الرؤيا .... وأشياء أخرى .

ـ أية رؤيا ؟! وأية أشياء ؟!

أطرق (رفعت) لوهلة عاد بعدها ينظر إليه ملقيًا بما عنده :

ـ ذات ليلة ، وقبــل أن يحــل أربعون (سمر) استدعتنا (عزيزة) أنا و(شحات) إلى منزلها ، فذهبت إليها ولم يذهب (شحات) ، وكان ذلك من حسن حظها لسبب ستعلمه من الحكاية بعد قليل ، وهناك وجدتها تجلس مع (ناصر) وهى تكاد تُجن من فرط عصبيتها ، فسارعت بسؤالها عما بها ، فإذا بها تخبرنا

بأن (سمر) قُتلت !! وضربنا الذهول أنا و(ناصر) ، وللوهلة الأولى اعتقدنا أنها تهذى من شدة حزنها على ابنتها ، ولكننا فوجئنا بها تصرخ فينا بأنها ليست مجنونة ، وأنها تعى جيدًا ما تقول ، وأن (سمر) قُتلت .. وهنا لم نملك إلاَّ أن نهدئ من روعها ، ونطلب منها تفسير ما تقول ، فإذا بها تخبرنا وهى تبكى بأن (سمر) منذ الليلة التالية لدفنها تأتيها فى المنام بثياب العُرس التى ماتت بها ، وفى يدها علبة كوكاكولا تشير إليها قائلة فى حزن وكمد أنها قُتلت ، وأنها حزينة ومقهورة ؛ لأنها قُتلت ظلمًا يوم عرسها ، ولن تستريح فى قبرها حتى نثأر لها ممن قتلوها ؛ فأسرعنا أنا و(ناصر) نسأل (عزيزة) فى نفس واحد عمن قتلوها ، فكان جوابها بأن المرحومة لم تخبرها ، وأنها فقط ظلت تشير إلى علبة الكوكاكولا التى فى يدها بمنتهى الكمد .. وهنا وجدتنى أتبادل نظرة حيرة مع (ناصر) ، ولكن (عزيزة) لم تتركنا لحيرتنا ، فقد فوجئنا بها تقول لنا أنها فى بادئ الأمر فسرت أيضًا الأمر مثلنا بأنه مجرد هذيان منها نتيجة فجيعتها فى ابنتها ، ولكنها فوجئت بنفس الرؤيا تتكرر معها ليلة

بعد ليلة ، بل إن المرحومة راحت مع تكرار الرؤيا تزداد حزنًا وكمدًا ، حتى بلغ بها الأمر حد العتاب عليها ؛ لأنها لا تصدقها ، وتُفرط فى دمها ، وهنا أدركت أن الأمر ليس هلوسة أو هذيانًا ، وأن ابنتها قُتلت فعلاً ، وأنها ماتت مسمومة بعلبة الكوكاكولا التى كانت تشربها ، والتى سقطت من يدها وهى تحتضر ..

وأمسك (رفعت) عن الحديث لوهلة كى يتمالك نفسه ، ثم عاد يواصل الحكاية فى غم يعتصره :

ـ وأُسقط فى أيدينا ، فقــد تحرك فى نفسينا أنا و(ناصر) إحساس بجدية الأمر ، ووجدنا نفسينا للمرة الثانية نتبادل نظرة حيرة ، بينما انفجرت (عزيزة) باكية وهى تردد « دم ابنتى فى رقبتيكما .. فى رقبتى أخيها وخالها .. ابنتى ماتت مقتولة ، ودمها فى رقبتيكما .. دمها فى رقبتيكما » .. وكاد انهيارها هذا يذهب بعقلينا ، ولم نعـرف ماذا نفعـل ، فلا القـاتل نعرفه ، ولا خيط نمسك بطرفه ، وفجـأة تساءل (ناصر) .. إذا كانت المرحومة قد ماتت مسمومة فكيف جاء تصريح الطبيب الشرعى

بأن وفاتها طبيعية ؟! ومن هنا أمسكنا بطرف الخيط ، وأسرعنا إلى الطبيب الشرعى الذى صرح بدفنها ، ولم نجده فى مكتبه ، فأسرعنا إليه فى منزله ، وهناك وجدنا مفاجأة فى انتظارنا ، فما أن ذكرنا اسم المرحومة أمام الطبيب حتى فوجئنا بفزع الدنيا كله يجتمع على وجهه ، وبتلعثم يكاد يشل لسانه وهو يخبرنا قبل أن نسأله بأن وفاة المرحومة كانت طبيعية ، ولم تكن بها أية شُبهة ، ولم نضيّع وقتنا معه .. أسرعنا بطرحه هو وزوجته وولديه على الأرض ، ووضعنا فوهات طبنجاتنا فى رءوسهم جميعًا ، مقسمين له بأنه إذا لم ينطق بالحقيقة ، فإننا سوف نقتل زوجته وولديه أمام عينيه قبل أن نقتله ، فأسرع يعترف بتزويره لتصريح دفنها ، وهذا لسبب واحــد ، وهــو أن الرجال الذين جاءوه يوم وفاة المرحومة للكشف عليها فعلوا به وبأسرته نفس ما فعلناه نحن بهم ؛ إذ طلبوا منه اصطحابهم للكشف على المرحومة ، والتصريح بأن وفاتها طبيعية ، وهددوه بأنه إذا لم يفعل فإنهم سوف يذبحون أسرته أمام عينيه قبل أن يذبحوه هــو ، بل إنهم منحوه نصف مليون جنيه مقابل تصريحه ، وعندما سألناه عن أوصاف هؤلاء

الأشخاص وصفهم بدقة ، بل أدلى باسم أحدهم الذى ناداه به رفاقه وهم فى الطريق للكشف على المرحومة ، ومن الاسم والأوصاف عرفنا أنهم من رجال (شحات) ..

وأمسك (رفعت) عن الحديث للمرة الثانية لوهلة أطلق فيها زفرة من أعماق صدره المختنق ، ثم مضى يختم روايته :

ـ والباقى لا يحتاج إلى حكى ، فما أن علمت (عزيزة) بالحقيقة حتى جُن جنونها ، وإذا بها تنزع طرحتها السوداء عن رأسها ، وتلقى بها على الأرض ، وتشق عباءتها السوداء بالطول ، كاشفة عن ثيابها الداخلية ، ومقسمة برحمة ابنتها بأننا إذا لم نقض على (شحات) ، فإنها ســوف تنزع عنها بقية ثيابها ، وتنطلق عارية تمامًا فى الشوارع حتى تبلغ قبر ابنتها ؛ لتحطمنا بالعار إلى الأبد ، وكان لها ما أرادت .

★ ★ ★

الفصل التاسع

ما أن فرغ (رفعت) من روايته ، حتى أطبق صمت القبور على المخزن ومن فيه ، أما (علاء) فقد جاء رد فعله مثيرًا ومخالفًا لطبعه العصبى تمامًا .. لم يتحرك فى مقعده قيد أُنملة .. لم ينبس ببنت شفة .. لم تختلج عضلة واحدة فى وجهه .. لم يطرف له جفن .. لم يزحزح عينيه عن عينى (رفعت) .. لم يأت بأى رد فعل سوى نظرة طويلة باردة برودة الثلج ، راح يتغلغل بها فى عينى (رفعت) ، جاعلة الأخير والرجال يضربون أخماسًا فى أسداس عما يجرى داخل (علاء) أو يفكر فيه ، ولكن لأن رجاله جميعًا أولاد سوق ، وليسوا بلهاء ، فقد أدركوا بعد وهلة أن الفتى اشتعلت فى داخله نار جهنم ، ولكن من شيم بعض الرجال إذا ما وجدوا أنفسهم فى مواجهة مصيبة ثقيلة من هذا النوع أن يركنوا بأنفسهم إلى هذا الحال من السكون التام ، ولكن هذا السكون دائمًا ما يكون السكون الذى يسبق العاصفة ،

فمتى ستنفجر عاصفة رجلهم ؟ وكيف ؟ هـذا هـو ما جعلهم يتطلعون إليه فى حذر ورهبة ، وطال بهم سكون (علاء) حتى ظنوه سيموت فى مقعده ، فما كــان منهم إلاَّ أنهم دنوا منه بحذرهم ورهبتهم ، وأحاطوا به ، وراح أحدهم يناديه فى رفق :

ـ باشا ! (علاء) باشا !

فما كان من (علاء) إلاَّ أنه التفت إليه بغاية الهدوء ، وراح يدور على بقية الرجال بنظرته الباردة الخالية من أدنى انفعال ، ثم نهض واقفًا ، وراح يلملم طبنجته ومفاتيح سيارته وبقية أشيائه من فوق الطاولة ، وهو يقــول لهم بهدوئه ، ودون أن يلتفت إليهم :

ـ علِّقوه من قدميه فى السقف .

وأسرع الرجال ينفذون ، بينما انفجر صراخ (رفعت) وسبابه ، وهو يحاول مقاومتهم ، حتى فرغوا من تعليقه ، فرفع (علاء) عينيه إليه قائلاً بهدوئه المثير :

ـ هل تتذكَّر يا (رفعت) ما وعدتك به يوم علقتنى من قدمى هنا فى نفس هـذا السقف ؟ وعدتك بأن أعلقك من قدميك فى نفس السقف وبنفس الطريقة ، وها أنا أفى بوعدى .

واستدار إلى رجاله مردفًا :

ـ لا تحلوه إلا بأمرى .

واستدار منصرفًا بهدوئه ، بينما (رفعت) يصرخ من خلفه بجنون وبأعلى صوته :

ـ سأقتلك .. سأقتلك .. والله العظيم سأقتلك .

★ ★ ★

بنفس هدوئه الظاهر وبركانه الخفى مضى (علاء) بسيارته ، حتى دخل القصر .. كانت الساعة تجاوز الخامسة صباحًا ، ومع ذلك وجد أهل القصر جميعًا مستيقظين فى انتظاره بقلق يفترسهم ،

فهو منذ أن ترك (أميرة) مع حراسته على الطريق لم يتصل بهم ، ولم يطمئنهم ولو بكلمة واحــدة .. وموبايله مغلق من لحظتها .. أين ذهب ؟! وما سر هذه المكالمة التى قلبت حاله وجعلته يترك زوجته فى الطريق هكذا ؟! وما الذى دفعه لأن يغلق موبايله هكذا ؟! ولماذا تأخر كل هذا الوقت ؟! كلها تساؤلات انهالت عليه من الجميع .. (أميرة) وأمها والمعلم (شحات) ، وإذا بهم يفاجئون بالفتى لا يجيبهم ببنت شفة ، ويفاجئون به جامد الملامح .. مُطفأ الوجه .. مصلوب العينين .. ونظراته منذ أن دخل عليهم تتجه إلى المعلم (شحات) فى تساؤل وذهول وغم وحيرة ، حتى إنه لم يشعر بـــ (أميرة) وهى تندفع جريًا إليه ، تسبقها تساؤلاتها فى ذعر وقلق عاصف عليه .. لم يشعر بها إلا حينما هزته بقــوة مــن ذراعيه ، وهى تهتف به بجم ذهولها :

ــ (علاء) .. حبيبى .. ماذا بك ؟!

وانتبه لها (عــلاء) ، فلم يزد جــوابه لهـا عــن نظرة هادرة فى وجهها ، راح بعدها يتقــدم مــن المعلم (شــحات) فى مقعده ، حتى وقف أمامه راشقًا نظرته المشـحونة بالمرارة والغــم فى عينيــه ، فلم يملــك المعلم إلاَّ أن يســأله بدهشته التى طغت :

ــ ماذا بك يا بنى ؟

ــ لماذا قتلت (سمر) ؟

خرج السؤال من الفتى خفيضًا هادئًا ، ومع ذلك وقع على رأس المعلم و (رقيَّة) و(أميرة) كصاعقة من جهنم أخرستهم وجمَّدتهم فى أماكنهم مبهوتين ، حتى عاد (علاء) يكرر سؤاله للمعلم بنفس الخفوت والهدوء :

ــ لماذا يا معلم ؟! لماذا قتلت (سمر) ؟!

وتحركت (أميرة) وأمها نحو (علاء) ببهوتهما ، لتسأله الأولى :

ـ (علاء) !! ما هذا الذى تقوله ؟!!

وأعقبتها أمها وهى تحملق فيه بارتياب :

ـ (علاء) يا بنى .. هل جرى لعقلك شىء ؟!!

أما المعلم (شحات) فقـد علقت عيناه بعينى الفتى فى يقين مطلق بأنه فقد عقله فعلاً ، ومع ذلك عاد (علاء) يردد عليه سؤاله للمرة الثالثة :

ـ تكلم يا معلم ! أخبرنى لماذا قتلت (سمر) ؟!

ووجد المعلم نفسه يسأله ببهوته :

ـ أين كنت يا (علاء) ؟

وكان رد (علاء) دون أن يزحزح عينيه المصلوبتين عن عينى المعلم :

ـ أنا الذى أسألك يا معلم .

وإذا بالجواب يأتيه من (أميرة) فى صرخة هادرة صارمة :

ـ تسأل من يا متخلف ؟! هل نسيت نفسك ؟!

هنا فقط أجابها الفتى بنفس هدوئه ، ولكن دون أن يحيد بعينيه عن المعلم :

ـ لا يا (أميرة) هانم .. لم أنس نفسى ، وأعى جيدًا من أسأله .. أسأل المعلم (شحات) .. المعلم (شحات) سيد المعلمين .. المعلم (شحات) سيد الرجال ، وأشجع الرجال ، وأكرم الرجال .. أسأل المعلم (شحات) الذى ليس فى رجولته رجل ، ولا فى قامته قامة .. أسأل أقرب البشر إلى قلبى ..

أسأل صاحب الفضل علىَّ بعد ربنا سبحانه وتعالى .. أسأل من انتشلنى أنا وأمى وأخوتى من تحت الأرض .. من القاع .. من الجوع والعرى والمرض .. أسأل مـن غمرنى بخيره .. من أدخلنى سيدًا فى عالم ما كنت لأحلم بأن أدخله خادمًا .. أسأل من آوانى فى بيته ، وأمننى على أهله وماله وعرضه ، وزوجنى ابنته .. أسأل من هو عندى أعظم من الأب ، ومن ملايين الآباء ..

أسأل أبى .. أسأل أبى (شحات) .. أبى الذى قتل حبيبتى فى ثوب عرسها .. ولأن القتيلة حبيبتى والقاتل أبى ، ولأننى لا ولن أستطيع القصاص لحبيبتى من أبى فإننى . فإننى ......

واختنق صوته ببكائه ، وظهرت فى يده طبنجته ، واضعًا فوهتها أسفل ذقنه ، وأردف ببكائه :

ــ فإننى سأفتديه بنفسى .. سأقتل نفسى قصاصًا لحبيبتى ، وفداءً لأبى ..

وتحرك أصــبعه على الزنـــاد ، فإذا بالتى تدوّى هى صرخة (أميرة) لا العيار النارى :

ــ أنا التى قتلتها !! أنا يا (علاء) !!!

وتجمد أصبع (علاء) على الزناد ، والتفت إليها مصعوقًا ، فإذا بها تندفع نحوه خاطفة الطبنجة مـــن يده ، ثم تردف قائلة بدموعها الغزيرة :

ــ نعم يا (علاء) .. أنا التى قتلتها .. أنا التى أرسلت لها علبة الكوكاكولا المسممة مع إحدى الفتيات فى الكوافير ، وأنا التى أرسلت الرجال إلى الطبيب الشرعى ؛ ليرغموه على تزوير تصريحه بدفنها .. أنا يا (علاء) .. أنا يا بابا .. أنا يا ماما .. أنا .. الله يلعننى .. الله يلعننى .

ودوى العيار النارى مخترقًا صدرها ، وقبل أن تكمل أمها صرختها المروعة ، وقبل أن يكمل (علاء) قفزته إليها كانت قد لفظت أنفاسها ، تاركة المعلم (شحات) جامدًا فى مقعده ، وعيناه عليها صريع ذهوله !!!

★ ★ ★

وعلى طريق (صلاح سالم) ، وصوب مقابر السيدة (عائشة) مضى موكب جنازة (أميرة) من عشرات السيارات السوداء الفارهة ، وقد حملت المئات من وجهاء المجتمع وكبار المسئولين ورجال الأعمال وعائلات الصعيد والأقارب والأصدقاء وموظفى

وعمال وعملاء الإمبراطورية البترولية ـ يتقدمهم المعلم (شحات) و(رقيَّة) و(عصام) و(علاء) فى سيارة الأخير الليموزين الضخمة السوداء ، حتى بلغوا المقابر .. كان الموكب مُهيبًا ، طويلاً ، مُذهلاً ، ومع ذلك كـــان هناك ما هو أكثر هيبة وطولاً وإثارة للذهول .. إنه شريط الحكاية الذى راح يمر بمنتهى الجلال والرهبة فى ذهن (علاء) .. شريط حكايته من بدايته .. من منزل أم (يوســف) ، ومقهى (الصعايدة) ، و(ســمر) فى عــزبة (شلبى) ، إلى مخــزن المعلم (شــحات) فى « الخصوص » ، إلى (أميرة) فى (أغاخان) .. إلى هذا المشهد الذى يسحق أشد القلوب بأسًا .. مشهد قبرى الفتاتين .. الحبيبة الحاضرة فى قلبــه حتى آخــر عمره .. والزوجة التى لا ولن تُعوَض ..

وانتهت مراسم الجنازة ..

وقبل أن ينتصف الليل كانت مراسم العزاء قد انتهت فى مسجد « آل رشدان » بـــ « مدينة نصر » ..

وأمام المسجد وقف (علاء) أمام المعلم (شحات) فى مقعده ، يتطلع إليه فى حزن وحيرة ، فما كان من المعلم إلاَّ أنه جذبه إلى حضنه ، قائلاً له بالدموع :

ـ ربنا يعوضنى فيك خيرًا يا بنى .. هيا بنا إلى القصر .

(تمـــت بحمـــد الله)

Fawziawad 2011 @ yahoo. Com

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

زهور

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجًا من وجودها بالمنزل



فوزى عوض

قسوة الأحلام

« ملك النار الجزء 4 »

بدافع الحب الجارف المتدفّق
فى قلبها ، وعن طِيب خاطـر مضت
« أميـرة » فى انسحابهـا إلى الخلـف ،
مُفسحة الدرب لزوجها ؛ ليمضى قُدمًا
نحو عرش إمبراطورية « الشحات » ،
حتى تربّع فوقه ، وصارت فعليًا
إمبراطورية « علاء ربيع » !!

121





الثمن فى مصر 500
وما يعادلـه بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم